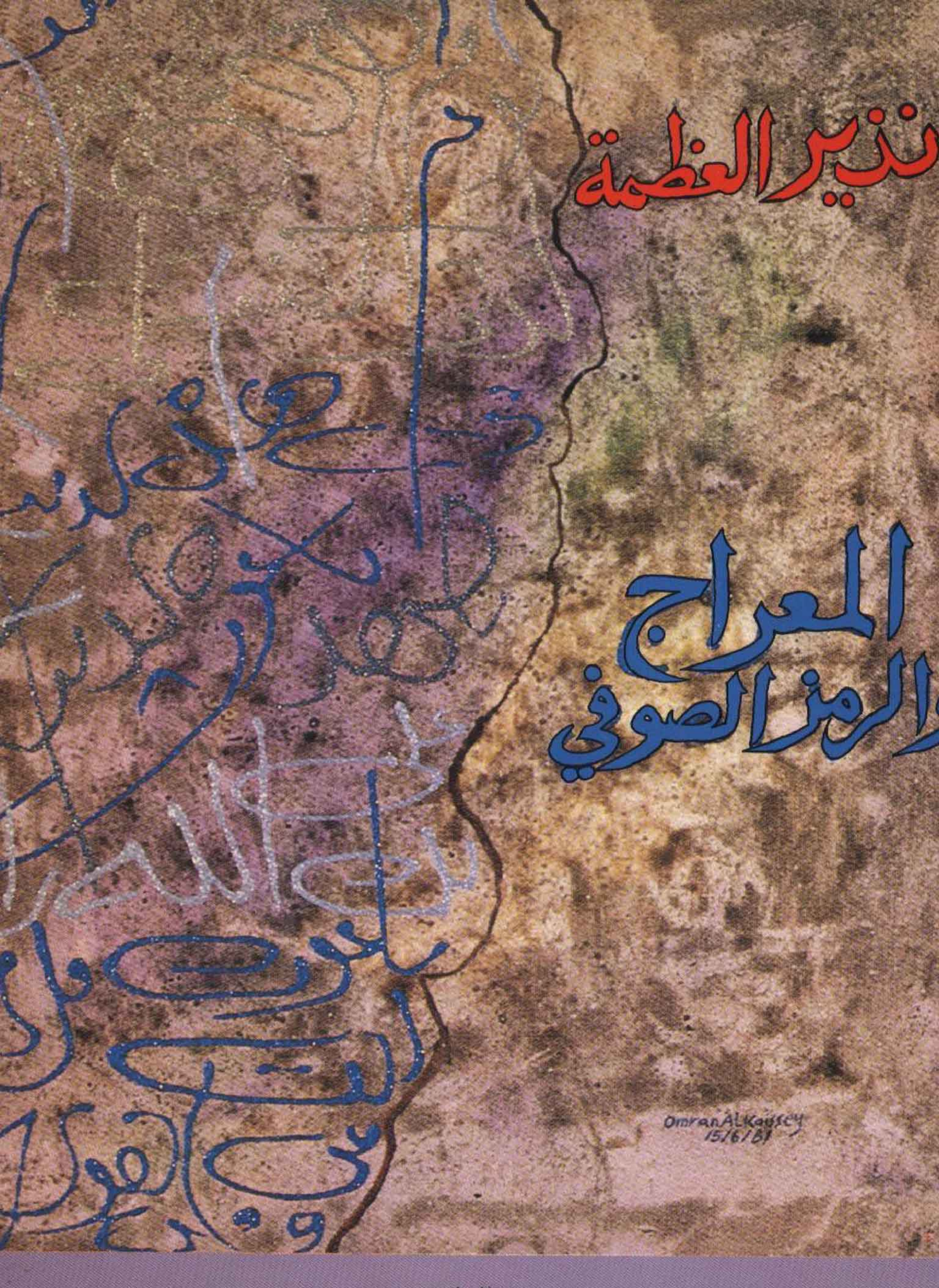
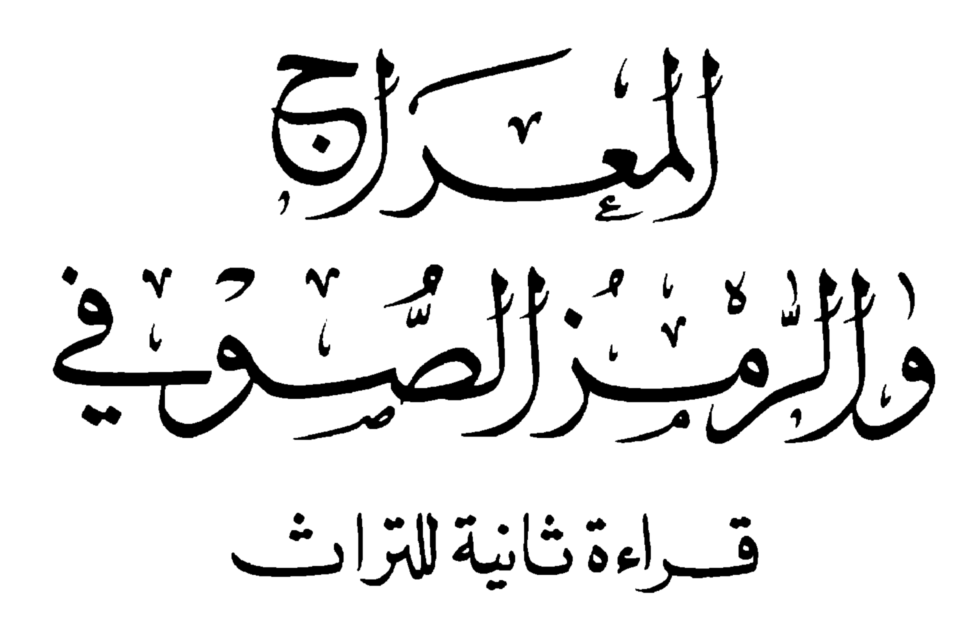


دار الباحث

د. نذير العظمة



دار الباحث

الباب الأول

مصادر المعراج
بين التنوع والوحدة

مصادر المعراج
بين التنوع والوحدة

لقد تطور قصص المعراج، ونما نمواً واسعاً على ممر العصور، وتدرج في هذا النمو تدرجاً طبيعياً من آية في القرآن الكريم، إلى حديث في السنة ذي أسانيد متعددة، إلى قصة في «السيرة» كما رواها ابن إسحق (٧٦٨م) متكاملة المعنى والإطار، ثم إلى رؤيا رمزية عند المتصوفة كالبسطامي (٨٧٥م)، وابن عربي (١٢٤٠م)، وغيرهما ثم أخذ يتلبس أشكالاً أدبية وأطراً شعبية كما هو الأمر عند أبي العلاء المعري (١٠٥٨م) في «رسالة الغفران» ورواية ابن عباس في صورتها الشعبية (٩ ـ ٦٨٨م)[1].

ولا يسع الدارس في هذا الشأن، إلا أن يلاحظ أن نمو قصص المعراج رافقه أمور، أولها أنه كان نمواً متدرجاً ومترابطاً ترابطاً عضوياً بتطورات العلوم الاسلامية ومنجزاتها، فاستفاد من علوم الحديث والتفسير والسيرة والتصوف ونزعات القصص الدينية. وثانيها أن قصص المعراج انتفعت بروح الانفتاح الاسلامي الذي تحلى به فكر المسلمين وحضارتهم بدءاً من حركة الفتوح التي انتقلت من الأرض إلى الثقافة، فنظموا حركة البعثات والترجمة، ورعوا نزعات التأليف. وقد ساعدت نزعة الهضم والتمثل التي رافقت روح الانفتاح قصص المعراج، في استيعاب عناصر ومصادر غير إسلامية، من وثنية وعبرية ونصرانية دخلت إليها عن طريق التصوّف والفولكلور الشعبي، كما دخلت عن طريق التراث الحي الذي تناقلته الأجيال كابراً عن كابر.

وثالثها، أن هذا التنوّع الذي دخل على قصة المعراج، لم يفقدها الوحدة من حيث التفكير الذي يصدر بالدرجة الأولى عن حاجات الجماعة المسلمة، ويهدف

إلى تلبيتها، فكان التخييل والتصوير يساعدان في إيضاح معاني المعراج الخالدة وأفكاره السامية.

وهذه الأمور طبيعية إذا تذكرنا أن الإسلام أدخل في حوزته السياسية والدينية والحضارية أوزار كل المناطق التي انتشرت فيها الحضارات الفينيقية والآرامية،وورث في آن أمجاد الرومان والفرس السياسية ومنجزات اثينا العلمية والفلسفية، واستوعب الديانتين اليهودية والمسيحية مركّزاً على مفهوم وحدة الخالق ووحدة الوحي ووحدة أنبيائه وكتبه.

وتبدو لنا حصيلة المعراج وتراثه مدينة فكرية تصورية تجلت أخباراً وأحاديث مع الصحابة وتابعيهم، كما تجلت قصصاً رمزياً مع البسطامي وابن عربي والعطّار (١١٢٠ ـ ١٢٣٠م) وسنائي (١١٥٠م) وغيرهم، ثم فرضت قصة المعراج سلطانها على الشعراء والأدباء فنشأ عن ذلك آثار أدبية نثرية وشعرية فذة «كرسالة الغفران» للمعري و «ثورة في الجحيم» للزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦ م) وهكذا.

وشأن تراث المعراج في هذا هو أن المدن القديمة كأور وبابل وماري من حضارات الشرق القديم التي كشفت عنها الحفريات، فجاءت طبقات يعود تاريخها إلى قرون متعددة تنتمي إلى مراحل من المدنية مختلفة، فمنها ما يرجع إلى الطبقة الأولى ومنها ما يرجع إلى الطبقة الثانية في المقياس الزمني التاريخي لعلمي الآثار والانسان، وهكذا وبالقياس إلى ذلك فإن نتاج المعراج،هذا النوع الأدبي المتميز في الآداب الاسلامية،منه ما يرجع إلى القرن السابع،ومنه ما يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع والعاشر وهكذا دواليك.

وهذه التعددية والوحدة للأثر الواحد ليستا من خصائص أدب المعراج فحسب بل انها ظاهرة تنطبق على كثير من روائع الأدب العربي الأخرى كالمعلقات الجاهلية والمعارضات الأموية،ثم المقامات وقصة عنترة في رواياتها المتعددة من شآمية وحجازية ومصرية كلها تخضع لمفهوم النموذج الواحد وتعدده من حيث الرواية أو الصورة. ويتجاوز سلطان هذا المفهوم الحضارة العربية إلى غيرها من الحضارات السامية فملحمة جلقامش مع كونها نموذجاً واحداً فقد تعددت رواياتها السومرية والبابلية المدوّنة على ألواح الطين المشوي.

تماماً كما توحدت نماذج قصص المعراج وقصة عنترة، وتعددت نسخها ورواياتها، ويبدو هذا الأمر أكثر وضوحاً في قصة الطوفان،التي هي جزء من ملحمة جلقامش في أقدم صورها، ثم تتلوها الروايات العبرية في التوراة، والعربية في الشعر العربي عند أمية بن أبي الصلت،خاصة ورواية القرآن الكريم، هذه الآثار كلها ينتظمها مفهوم التعدد والوحدة للأثر الأدبي الواحد.

وإذا عدنا إلى المعراج كنوع أدبي نجد أنه لم يجانب هذه الحقيقة، فهو كفن المعلقات وقصص الطوفان، النموذج والاطار واحد، ولكن المحتوى والجزئيات والتفاصيل متنوعة ومختلفة، فتعدد الروايات والصورة لا ينفي وحدة النموذج وأصالته في المعايير الابداعية للخلق الأدبي. كما أنه لا ينفي الفرادة والتميز لكل صورة أو رواية أو لجانب من جوانبها.

وينبغي لنا هنا أن نميز بين أمرين، أولهما إضافات الخلق والابداع، وثانيهما إضافات الشرح أو الاضطراب أو النسخ إذ كثيراً ما يكون مصدر الاضطراب والغموض والفوضى في بعض روايات المعراج،ناتجاً عن تدخلات النساخ والرواة ومشاركاتهم، وغالباً ما يضيف ناسخ أو راوٍ على الأصل زيادات توافق هواه وأغراضه وذوقه، وتنعكس فيها مؤثرات الوسط الذي يعيش فيه والعبرة التي يتوخاها من روايته ونسخه.

مهما يكن، يجب الا يصرفنا هذا الدور الذي يلعبه الرواة والنساخ في نمو قصص المعراج، والذي حققه علماء الأحاديث وبينوا أسانيده وصحته عن أصالة المبتكرات لصور المعراج الأخرى من صوفية وفولكلورية، فالمبتكر أو المؤلف ذو الأصالة لا يخسر فرادته أو يضحي بأصالته عندما يلتزم نموذجاً أو نوعاً أدبياً بعينه، معلقة كان أو معراجاً، قصة طوفان أو خليقة.

والنتيجة الطبيعية التي نستخلصها من دراستنا هذه ومن نقاشنا،هي أن قصص المعراج نوع أدبي مستقل قائم بذاته رغم مصادره وأصوله من قرآن كريم وسنة أو مصادر دينية وحضارية أخرى، واقتناعنا بهوية هذا النوع الأدبي المتميز وقيمته الابداعية في الأدب الاسلامي تكمن وراء اهتمامنا واحتفالنا به.

فما رواه ابن عباس (٩ ـ ٦٨٨م) أصلاً عن الرسول، وما رواه أنس بن

مالك (٧١١ ـ ٦٥٩م) وغيرهما من صحابة الرسول الأول،حفظته لنا كتب الحديث كالبخاري ومسلم والمصادر الأخرى،حتى أصبح لدينا ما يعادل أربعين رواية أو نيف لحديث المعراج،رواه صحابي أو تابعي أو تابع التابعي. وقد أبقت هذه الروايات جميعاً إطار حديث العروج وعناصره الأساسية من إسراء ومعراج وأفلاك وملائكة وأنبياء، ثم أضيفت إليها أحاديث زيارة الجنة والجحيم فيما بعد،والمثول بين يدي الحضرة الإلهية بعد سدرة المنتهى والأمر بالصلوات الخمس، جبريل هو قائد الرحلة والبراق مطيتها،والمعراج سلمها إلى الملأ الأعلى، ولكن هذه الروايات تختلف في الأسلوب والصياغة،كما تختلف في سعة الحديث وحجمه وتفاصيله وجزئياته.

ونستطيع القول ان ابن إسحق هو أول من أعطى لحديث المعراج أو أحاديثه، صيغة القصة الكاملة في كتاب (السيرة)، ففي هذا المصدر تتضح لنا معالم قسمي الجحيم والجنة بشكل بارز،على حين أن روايتي البخاري ومسلم اقتصرتا على سدرة المنتهى كإشارة رمزية إلى الجنة، ولم تذكرا زيارة الجحيم ولو إشارة، أما رواية ابن عباس فهي أكثر الروايات تفصيلاً وأكثرها جزئيات، وربما كان هو وابن إسحق مسؤولين عن تطور القصة من صيغة الحديث والخبر، إلى صيغة القصة الكاملة[٢]

فالعناية البالغة التي حظي بها أدب المعراج من قبل علماء الحديث وأصحاب السيرة وأهل الكلام والفقه وأصحاب التصوّف والقصص،تكمن وراء نمو هذا النوع الأدبي الخاص الذي استمر نتاج نماذجه المتنوعة حتى مطالع القرن العشرين، وأحلته مكان الصدارة من الأنواع الأدبية للقصص الديني، وكل فئة من هؤلاء كانت تأخذ مصادر القصة الأولى، وتصوغها صياغة جديدة من خلال منظورها واختصاصها، وتطرح أو تعالج من إطار القصة وأقسامها وتركيبها المشاكل الفقهية والفكرية والصوفية المختصة بها.

وتتميز معالجتهم بأشياء جديدة،لم توجد في المصادر الأولى أو الروايات السابقة، وتأخذ على سبيل المثال وصف العرش الذي وصفه القرآن الكريم بقوله: «وسع كرسيه السموات والأرض»[٣] فإن نسخة من نسخ المعراج تصفه كما يلي: «والعرش الذي تحمله أصناف من الملائكة عددهما ثمانية، إثنان على صورة بني آدم، واثنان على صورة الأسد،واثنان على صورة النسر واثنان على

صورة الثور، تتعبد الله وتسأل الرزق للإنسانية والسباع والطير والدواب»[٤]. وما من ريب أن هذه الإضافات بدع لم تتضمنها الأحاديث،وإنما هي من مولدات الخيال الشعبي والفولكلوري وإسقاطها من إسناد الرواية والصحة، أمر واجب في علم الحديث، ولكنه لا يسقط قيمتها عند الدارسين في حقول التصور المبدع في الأدب والفولكلور وغيرهما من الدراسات.

من هنا نرى أن التسلسل الإخباري والقصصي لحادثة المعراج،إنما يستمد عناصره من القرآن والحديث والمعتقدات الشعبية والدينية في الملائكة وصور الجحيم والنعيم وأغلب الظن أن بعض أجزاء القصة وتفاصيلها كوصف العرش مثلاً ترجع إلى أصول غير عربية،من وثنية سامية قديمة ونصرانية وعبرية، فراح الإخباريون والقصاصون المسلمون والمتصوفة يستفيدون من مؤثراتها في الخيال الشعبي ، يسبغون عليها طابع الإسلام ووحدانيته،وينفون منها ما خالف أفكاره الأساسية وعقائده الأولية.

ولهذا ما له من أهمية،للذين يعنون بالدراسات المقارنة، فصلة قصص المعراج بعضه ببعض بينة في كل العصور رغم تميز كل منها بخصائص معينة في الإداء والتصوير وتنوع صورها، يبقى النموذج هو الأساس، ويمكن للدارس أن يقوم بمقارنات ممتعة بين النماذج والصور المتنوعة عنها كائناً ما كانت مصادرها من قرآن وحديث أو مصادر حضارية ودينية وما يصاحب ذلك كله من دلالات ثقافية وفكرية أو مغازٍ رمزية. ثم تأتي معها دراسة أثر هذا النموذج في حقول المعارف الأخرى،كالتصوف والأدب والفولكلور وغيرها.

وينفرد أهل التصوف من بين هؤلاء جميعاً بكونهم هم الذين أعطوا لهذه القصة أبعادها النفسية والانسانية مخرجين إياها من سياق الأحاديث والأسانيد والتواريخ. لذا انصبت دراساتهم واهتماماتهم بالدرجة الأولى على قيمتها الرمزية، فلم يكتفوا بالتأويل الرمزي للمعراج بل أضافوا إليه عناصر جديدة تمثل لنا جوانب مهمة من أفكارهم ومعتقداتهم. ونظرة متأملة إلى الرموز والطريقة التي استخدمت فيها الألوان والأنوار والحجب،كفيلة بأن تكشف لنا نفوذ وسيطرة الرمز والتأويل الصوفيين على روايات متعددة من قصة المعراج،هذا إذا أضفنا إلى ذلك إنتاج الصوفيين أنفسهم لمعارضات تنحو نحو الرسول في عروجه إلى الملأ الأعلى،بدءاً من البسطامي،ومروراً بابن عربي والعطار وسنائي إذ

يصبح العروج كلا رمزياً للطريق الصوفي في مقاماته وأحواله والمجاهدة بين الفناء والبقاء لبلوغ وحدة الشهود وإدراك وحدة الوجود.

ويصعب علينا إذا أغفلنا هذه الخلفية أن نتفهم ونتذوق أدب المعراج لا من حيث الاطار والتركيب فحسب بل من حيث الجزئيات والتفاصيل.

ولم تحظ قضية المعراج بالعناية الكافية في دراساتنا وبحوثنا رغم خطورتها وعظم مكانتها في الآداب الاسلامية وتقاليدنا الأدبية. لقد أهملها النقاد إهمالاً يكاد يكون تاماً، واعتبروها من باب القصص الديني المعني بمسائل غيبية ولاهوتية لا تمس حياتنا على هذه الأرض. فالإسراء من مكة إلى بيت المقدس والصعود من هناك إلى السموات السبع ورؤية الرسول الأنبياء الموكلين بكل سماء وزيارة جهنم، ووصف أهوالها والمعذبين فيها والجنان والمنعمين بفردوسها والملائكة وأشكالها وأوصافها، قد تحجب المغازي الرمزية التي تحتوي عليها هذه القصة والمعاني الروحية التي ترمي إليها.

لقد سيطرت روح اليقظة القومية على الاتجاهات الفكرية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وساد الميل إلى عصرنة الأجهزة والمؤسسات الموروثة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم، فوقف المفكرون العرب وقفة فاحصة ومتحفظة من بعض أنظمتنا الروحية في أشكالها المتأخرة البالية.

كان جل همهم محصوراً في بناء الحاضر الذي يتجه اتجاهاً متزايداً نحو العلوم الحديثة وضرورة التفكير المستقل وأسبقية عناصر الأصالة والمعاصرة على النبش في خزائن الماضي، مما أدى إلى إهمال أشكال وأنواع أدبية لا تنسجم مع روح العصر كالمدح والهجاء في الأغراض والمقامة في الأنواع وقصص المعراج الديني.

كان من بعض أسباب هذا الإهمال أيضاً غلبة الأساليب البيانية السقيمة التي سادت معظم روايات القصة في عصور الانحطاط الأدبي فضاع بناؤها الأساسي وإبداعها التصويري، وغناها البياني والأسلوبي وخلق ديباجة متورمة من النثر المسجع المثقل بالتكرار والاعادة للموروث من مخيلتنا في عصورها الزاهية.

- كما ضاعت صلة قصة المعراج بنظامها الروحي والفكري وجذوره

الأصلية، هذا النظام الذي أعطى وأثمر للعالم ثمرات روحية تجاوزت الحدود المحلية والاقليمية والقومية وخرجت إلى العالم والانسانية بوجه مبدع وروح مبتكر صار فخر تراث أمم الشرق والغرب ومشاعاً بينها.

وحال قصص المعراج كحال قصص ألف ليلة وليلة ظلت خارج دائرة البحث الأدبي الرصين حتى جاء بعض المستشرقين فنفضوا عنها غبار الإهمال وأبرزوا ما فيها من غنى التراث مضامين وأشكالاً، وجلوا قيمها التاريخية والاجتماعية والأدبية فانتبه إليها بحاثنا وكتابنا فأولوها شيئاً من الاهتمام والعناية.

ويجدر بالذكر أن أهل الحديث والرواية قد حققوا أحاديث الإسراء والمعراج فضبطوا أصولها وأثبتوا أسانيدها ورواياتها وبينوا ثقاتها وطبقاتهم فجاءت موجزة معبرة واحتفظت بشكل الحديث الذي يرمي إلى الاخبار والإعلام لعبرة تعتبر أو حكمة تستفاد أو قاعدة تتبع في حياة صالحة متوازنة.

ورواية البخاري ومسلم هي من هذا النوع الموجز السريع الذي يهدف إلى التعليم والاعتبار والوعظ لا إلى الادهاش والمفاجأة والرمز أو الكشف عن أسرار النفس وتلقينها كما هوالحال في روايات المتصوفة والقصّاص وأهل الأدب.

تتزايد يوماً بعد يوم إهتمامات الشعوب بمصادر الأدب الفولكلوري فكراً ومضموناً، أسلوباً وتصويراً. إن كثيراً من الجامعات تنشىء دوائر خاصة بدراسة هذا النوع المتميز من الأدب الذي بقي تراثاً حياً في ذاكرة الشعوب ومادة غنية في أفواههم يتناقلونه من جيل إلى جيل كما القصص الشعبي والديني والملاحم.

وقصص المعراج أشبه ما تكون بملحمة دينية وكونها من أدب الرحلة فهي تمت بالنسب إلى سابقتها «جلقامش» السومرية فالمشابهات بينهما كثيرة في الاطار والتفاصيل والمسار العام والجزئيات. فالمعراج كقصة خرجت من دائرة الحديث الذي يضبط بالرواية وصارت لوناً من ألوان الأدب الشعبي والديني. لقد أضاف أهل القصص إلى روايات الحديث وأصوله اضافات مبتكرة أو مكتسبة من تراث الأمم التي عربها الاسلام أو أدخلها في حوزته السياسية والحضارية

مخطوطات مهمة

ركزنا الأنظار في هذه الدراسة على الرمز الصوفي في بنية المعراج إلا أننا لم نهمل صوره الفولكلورية حتى أننا مزجنا بينهما في ظاهرة النور والحجاب من دراستنا هذه لكون التصوف بدأ في الاسلام حركة روحية مختصة بالنخبة ثم تطور إلى حركة شعبية عريضة كان المعراج من أهم وثائقها وصورها المعبرة عبر الطرق الصوفية التي كان من بعض طقوسها تلاوات قصص المولد والعروج في احتفالات جماعية في تواريخ مخصوصة.

والنصوص الفولكلورية المتداولة منذ العصور المبكرة لنشأة القصة والتي ماتزال حتى اليوم أدباً دينياً شعبياً حياً كان من أهم سماتها تعميم الرمز الصوفي والاستفادة منه لتجاوب قطاعات كبيرة من المجتمع الاسلامي معه.

وفي حوزتنا مخطوطة للمعراج قديمة رغم أن تاريخ نسخها الأخير لا يتجاوز القرن من الزمان فهي شاهد حي على ذلك وهي من أوسع المخطوطات وأغناها بالتفاصيل والرموز التي تتوهج بالإشعاع الروحي من رمز صوفي وتصوير فولكلوري.

ولا يشاركها في ذلك إلا المخطوطة الأندلسية التي ترجمت في أشبيليه إلى اللغة الأسبانية عام (١٢٦٤ م) ولكنها ضاعت وبقي لنا منها ترجماتها إلى اللغة اللاتينية والفرنسية القديمة وقد خصصنا فصلاً كاملاً لمؤثراتها على الكوميديا الإلهية لدانتي نشرناه في مجلة المعرفة الدمشقية (تشرين الثاني سنة ١٩٧٩).

ومن دراستنا لمخطوطة اشبيلية في ترجمتها الفرنسية ومخطوطة هرات التي سنفصل القول فيها فيما يلي، وتحليل ما يقارب الأربعين نصاً لرواية المعراج في صيغ شتى من أحاديث وأخبار قصص تبين لنا أن مخطوطتنا التي حققناها والمنسوبة صراحة إلى ابن عباس. قديمة الوضع وهي من إنجازات حركة القصص الاسلامي الذي لم يتوقف عن النمو طيلة الفترة الواقعة بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي.

ويمكن الاستنتاج بسهولة أن المخطوطة الأندلسية ومخطوطة هرات ومخطوطتنا إن هي الا صور متنوعة ثلاث لرواية أنس بن مالك وابن عباس التي

ظلت تنمو مصاحبة ومعبرة عن الحاجات الروحية والأخلاقية للجماعات المسلمة على مختلف أجناسها وانتماءاتها الحضارية.

والنزعة التعليمية في آثار المعراج لا تقتصر على الممارسات الصوفية التي لم تحتفل بقسمي الجحيم والنعيم الدراميين لتركيزها على وحدة الشهودِ مع الخالق فتجاوزت العلاقات القانونية الشرعية من ثواب وعقاب إلى صلات المحبة والعشق وصلاتها.

إن هذه النزعة التعليمية أيضاً لتبدو واضحة في النسخ الفولكلورية للمعراج التي استرسلت ما شاء لها الاسترسال في هذين القسمين اللذين أهملهما أهل التصوف ـ أي الجحيم والجنة ـ فالحث على مكارم الأخلاق عبر الثواب والعقاب وعبر ملائكة الموت والنار والعذاب من عزرائيل ومالك وأنكر ونكير وغيرهم من الزبانية هو غرض أساسي من صور القصة المتأخرة ومنها مخطوطتنا المحققة.

وإذا نحن قارنا الجحيم والجنة بالصورة التي نشاهدها في السيرة لابن إسحق والصور الأخرى على تسلسل العصور كما هو الحال في الأندلسية ومخطوطة هرات ومخطوطتنا لوجدنا أن نظام الثواب والعقاب يعبر عن نفسه تعبير ترغيب أو ترهيب صارخين في صور الجحيم والجنة التي اتسعت وتشعبت وازدادت نوعاً وكماً على مر العصور فعلى حين أن الآثام لا تتجاوز أصبع اليد الواحدة في رواية ابن إسحق نراها تتجاوز العشرات في النسخ الأخرى، ولهذا بالطبع ما له من أبعاد أخلاقية واجتماعية ونفسية فهو معبر عنها جميعاً.

ويحتفظ لنا كتاب المعراج للقشيري الذي توفي في (١٠٧٤ م) بصيغة مكثفة عن رواية ابن عباس لا تتوفر على مثل هذه التفاصيل التي تتوفر في صيغها الأخرى المتأخرة وإن هي ضاهتها من حيث أقسام الرحلة وتركيبها وبنائها العام.

وحسب القارىء أن يقارن أبواب النسخة الأندلسية بأبواب نسخة هرات والنسخة التي حققناها في مواضع أخرى من هذه الدراسة ليتبين له مقدار اتساع القصة وتشعبها وتنوع صورها وإيحاءاتها على مر العصور.

إن نسخة هرات المعروفة بمعراج نامه صورة أخرى مشابهة لرواية ابن

عباس كما أوردها القشيري، رغم نسبتها إلى أنس بن مالك كما ورد في الصفحة الأولى من ترجمة المخطوطة، وقد ترجم هذه المخطوطة إلى اللغة التركية الشرقية الشاعر مير حيدر للشاه (رخ) الذي اتخذ من هرات خراسان عاصمة لملكه (١٤٤٧ ـ ١٤٠٤م)، ومعراج نامه كالمخطوطة الأندلسية ومخطوطتنا وثيقة فولكلورية فنية بالدرجة الأولى رغم أن الكتاب يفرد فصلاً خاصاً بالحجب التي نرجح أنها من إضافات الصوفية على قصة المعراج.

في الـ (BIBLIOTIC NATIONALE) دار الكتب الوطنية في باريس يوجد نسخة عن مخطوطة معراج نامه تحت رقم (١٩٥) في فهرس المجموعة التركية، وقد نشرتُ في نيويورك صورة عنها في كتاب عام (١٩٧٧ م) يضم بالإضافة إلى النص العربي للعناوين ترجمتها بالتركية واللوحات بكاملها، وهي من الانجازات الرائعة في الفن الاسلامي، باللغة والخط الأوغوري (UIGHUR) وهي فرع من التركية[٥].

كما ضم الكتاب شروحاً وأضواء على اللوحات ترجمها عن الفرنسية إلى الانجليزية (RICHARD PEVEAR) ريتشارد بيفير وقد قدمت للكتاب وعلقت عليه: MARY ROSE SEGUY ماري روزسيجو بعنوان: رحلة محمد العجائبية. The MIRACULOUS JOURNEY OF MAHOMET.

ولا يسعنا إلا أن ننوه بضرورة نشر صورة عن الكتاب بالعربية لأهميته الفنية البالغة لدراسة فن الرسم في الحضارة الاسلامية.

وتتفرد مخطوطة معراج نامه لا بكونها ترجمت إلى التركية فحسب بل بأهميتها الفنية ان في الخط أو الرسم إذ يرافق كل باب من أبواب القصة لوحة بالألوان المختلفة المذهبة ويبلغ مجموعها ثماني وخمسين لوحة المرجح أنها من صنع رسامين لا رسام واحد ينتمون إلى مدرسة هرات عاصمة خراسان.

ويطول بنا المجال إن نحن تعرضنا إلى موقف الاسلام من الصورة لأنه ليس من غايات هذه الدراسة. ولكننا لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن مؤثرات المعراج لم تقتصر على الأداب التركية والفارسية والأوروبية بل تعدت ذلك إلى أشكال التعبير الأخرى كالخط (CALLIGRAPHY) والرسم (PAINTING and ILLUSTRATION) ولهذا ما له من دلالة على أهمية هذا الأثر لا من الناحية

الدينية والروحية فحسب بل من الناحية الجمالية والفنية ولا نبالغ إذا قلنا ان نسخة معراج نامه تقدم وليمة فاخرة للعين بتصويرها مشاهد الرحلة بتفاصيلها وملائكتها وأنبيائها وجناتها وجحيمها وحورها وزبانيتها تصويراً رائعاً يـذكرنـا بروائع الرسم العالمية وهي من النفائس فهي لا تقل.روعة عن آثار·وليم بليك وجبران ورسومهما ومؤثراتها على العين.

وقد أفردنا فصلاً خاصاً لعناوين هذه اللوحات وحققناها كما وردت في كتاب معراج نامه بخط النسخ وبماء الذهب والمرجح أنها عناوين المخـطوطة العربية الأصلية لا المخطوطة ذاتها التي ترجمها الشاعر مير حيدر، ان تفاصيل اللوحات وإيحاءاتها في الأشكال والمواضيع تتجاوز حدود العناوين المكتوبة التي نحققها بالعـربية لأول مـرة أضف إلى ذلك أن هنـاك إضافـات في الترجمـة الانكليزية عن الفرنسية عن الأصل الأوغوري المترجم عن العربية، لم تتضمنها العناوين بالعربية وترجماتها بخط النسخ.

واختلال الوظائف النحوية واختلاط الضمائر في بعضها يشير بوضوح إلى أن العناوين هي من صياغة الفنانين الرسامين وليست جزءاً من النص العربي الأصلي أو أنها جزء منه ولكنها قرئت متحرفة من قبلهم، أو أنها عبث من النساخ. مهما يكن فإننا نسوقها للقارىء فيما يلي[٦]:

مجيء جبرائيل عليه السلام واخباره النبي (صلعم) أن هذه الليلة ليلة المعراج وأن الله تعالى يطلبك.

ركوب النبي (صلعم) البراق (.... ممسوح) والملائكـة يميناً وشمـالاً وحضورهم تحت كل لواء.

وصول النبي (صلعم) ورؤيته لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

صلاة النبي في بيت المقدس وامامته للأنبياء المذكورين عليهم الصلوات والسلام.

صعوده (صلعم) من بيت المقدس للسلم الذي حول السماء ورؤيته للبحر الأسود الذي يسمى بالكوثر وهو واقف في الهواء.

وصول النبي (صلعم) إلى السماء الأولى التي لونها لون الفيزورج وهي مخلوقة من حجر المينا وسمكه خمسمائة عام.

رؤية النبي في السماء الأولى لأدم صلوات الله تعالى عليهما وسلامه.

جواز النبي (صلعم) من السماء الأولى ورؤيته لديك العرش الأبيض الذي أرجله[٧] في الأرض ورأسه تحت العرش.

وصول النبي (صلعم) إلى السماء الثانية التي هي مخلوقة من اللؤلؤ.

رؤية النبي (صلعم) للملك الذي نصفه من الثلج ونصفه من النار في يده الواحدة مسبحة من النار وفي الأخرى من الثلج.

والرعد صوت تسبيح ذلك الملك.

وصول النبي (صلعم) إلى الملك الذي يعين أرزاق جميع المخلوقات.

وصول النبي (صلعم) إلى الملك الذي له سبعين رأساً وفي كل رأس سبعين لساناً بكل لسان سبعين[٨] أنواعاً[٩] من التسبيح.

وصول النبي (صلعم) إلى البحر الأبيض الذي في نواحيه ملائكة كثيرة.

وصول النبي (صلعم) إلى السماء الثالثة.

جوازه من هناك ورؤيته ليعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام.

رؤيته (صلعم) لداوود وسليمان عليهما السلام.

رؤية النبي (صلعم) في جنب بحر كبير ملكاً كبيراً سبعين رأس[١٠].

وصول النبي (صلعم) إلى السماء الخامسة التي هي مخلوقة من الذهب.

رؤيته لاسماعيل وإسحق ولوط عليهم الصلوات والسلام ورؤيته للبحر الذي من النار وقول جبريل عليه السلام أنه يصب به في جهنم في يوم القيامة.

وصول النبي (صلعم) إلى السماء السادسة التي خلقت من اللؤلؤ.

رؤية النبي (صلعم) لموسى عليه السلام بناء على أنه ما كان يرجو أن يكون واحداً من الأنبياء أرفع درجة منه[١١].

فلما فارقه رسول الله (صلعم) ومضى سمع موسى خطاب الحق تعالى: يا موسى كم من مقامات وفضايل أعطيتك لم تكن شاكراً.

رؤية النبي (صلعم) لنوح وإدريس عليهما الصلوات والسلام.

وصول رسول الله (صلعم) إلى السماء السابعة.

رؤية النبي (صلعم) لإبراهيم عليه السلام فوق منبر من زبرجد.

رؤية النبي (صلعم) لفريقين أحدهما بسهم أبيض والآخر ملمع وهم أمته وجبرائيل أذن لهم أن يجيئوا معه في هذا المقام الشريف ولم يأذن لأصحاب الثياب السوداء[١٢].

رؤية النبي لبحر أسود وفيه ملائكة كثيرة وسؤاله جبريل عن البحر وقول

جبريل أن هذا البحر لا يعلمه إلا الله تعالى ورأى النبي في جنب هذا البحر ملكاً رأسه تحت العرش ورجله على الأرض.

رؤيته (صلعم) ملكاً بسبعين رأس وطوله مقدار الدنيا وفي كل رأس بسبعين لسان يسبح الله تعالى بكل لسان ورأى ملكاً آخر إن صب ماء جميع البحار في عينه تلحق إلى عينيه الأخرى.

رؤية النبي (صلعم) ملكاً له أجنحة كثيرة يجيء إلى بحر من الماء ويرمي[١٣] نفسه فيه ثم يخرج فينفض أجنحته فإن الله تعالى بقدرته يخلق بكل قطرة تقع من ريش أجنحته ملكاً من الملايكة ورأى ملكاً آخر له أربعة رؤوس رأس آدمي ورأس أسد ورأس عنقاء ورأس ثور.

وصول النبي (صلعم) إلى سدرة المنتهى ورأى شجرة عظيمة بعض أغصانها من الزبرجد وبعضها من اللؤلؤ وأوراقها كأذن الفيل وثمراتها كثيرة ويخرج من تحتها[١٤] أربعة أنهار.

إحضار الملائكة لأجل النبي (صلعم) ثلاثة أقداح الواحد لبن والآخر شراب والآخر عسل وشرب النبي قدح اللبن لا غير فقال له الملائكة نعم ما فعلت يا محمد بشرب اللبن وحده ولم تشرب غيره فإن أمتك يخرجون[١٥] من الدنيا بالإيمان وفرح بهذا الكلام.

قول جبرابيل عليه السلام بأنني لا أتقدم من هذا المقام.

وأن هذا زمان الغربة وعوده إلى شكله الأول.

وصول النبي (صلعم) إلى مقام القربة وإشارة جبريل أنه مقام القربة[١٦] من الله أسجد فسجد (صلعم) وقال رأيت الحق تعالى وجل جلاله بعين قلبي.

رؤية موسى للنبي عليهما الصلوات والسلام وسؤاله عنه ربما[١٧] قال له وأمره الله تعالى فقال أمر بخمسين صلاة في خمسين وقت وأنه قال جعلتها فريضة عليك وعلى أمتك قال موسى إن أمتك لا يقدرون عليها فارجع واسأله في التخفيف فسأل ذلك من الله تعالى وهبه[١٨] من الخمسين خمسة وأربعين في مرات متعددة في كل مرة عشرة إلى أن استقرت[١٩] خمسة أوقات.

رؤية النبي (صلعم) سبعين ألف حجاب بعضها من نور وبعضها من نار وبعضها من ياقوت وبعضها من لؤلؤ وبعضها من ذهب وفي كل حجاب سبعة آلاف[٢٠] من الملائكة وكل ملك منهم أخذ بيد النبي (صلعم) من ذلك الحجاب وأوصله[٢١] إلى الحجاب الآخر.

رؤية النبي (صلعم) من حول العرش سبعين ألف خيمة كل واحدة بمقدار الدنيا سبعين مرة ومسافة ما بين الواحدة إلى الأخرى سبعين ألف سنة وفي كل خيمة خمسون ألف من الملايكة مشغولون بالطاعة.

وصول النبي (صلعم) وسجوده فوق العرش لله تبارك وتعالى.

تعرج النبي (صلعم) لحوض الكوثر والقباب العالية التي هي من الياقوت الأحمر وبعضها من الزبرجد وبعضها مخلوق من اللؤلؤ.

مجيء النبي (صلعم) إلى باب الجنة وفتح الحاجب لبابها وتفرج النبي (صلعم) للجنة.

وأيضاً رؤية النبي (صلعم) كرماً في وسط الجنة وفيه جماعة كثيرة من الحور بعضهن جالسة على الكرسي وبعضهن تلعب مع بعضهن.

رؤية النبي (صلعم) للحور في يوم الجمعة وهن راكبات على الجمال تضحكن وترحب بعضهن وهن في السير.

رؤية النبي (صلعم) لقصر عظيم وفيه جماعة كثيرة من الحور الحسان وسؤاله لمن هذا القصر فقالت الحور إنها لعمر رضي الله تعالى عنه.

وصفه باب جهنم وصورة مالك وقول النبي (صلعم) يا مالك إضرم نار جهنم دفعة واحدة وكيف أخذت الهيبة للنبي (صلعم) وكذلك لجبريل عليه السلام.

صفة شجرة الزقوم التي شوكها مثل الرماح وثمارها رؤوس العفاريت والسباع[٢٢] وصفه الرجال الذين لا يعملون بعلمهم وينصحون الناس ويمنعونهم من العمل السيء وهم يشتغلون به.

صفة الرجال الذين يظهرون التبسم والممازحة في وجوه الناس ويغتابونهم في غيبتهم بالنفاق.

صفة الرجال الذين يعطون ذهبهم للربا ويأكلون فايدة الربا.

صفة الرجال الذين يغتابون المسلمين عند الظالمين ليأخذوا أموالهم بالظلم والذين يرمون الفتن بين المسلمين.

صفة الرجال الذين يصلون الصلواة رياء بغير إخلاص.

صفة النساء التي[٢٣]ماسترت شعرها من غير ذي محرم وجرت بينهن أمور غير ملايمة.

صفة النساء التي[٢٤] تطول ألسنتهن على أزواجهن وتخرجن بغير أذانهم وتشتغلن بالعمل الفاسد.

صفة الرجال الذين يأكلون أموال الأيتام.

صفة النساء اللاتي تلدن الأولاد من غير ذي رحم وتدخلنهم للميراث.

صفة الرجال الذين ما أعطوا زكاة أموالهم.

صفة الرجال الذين أكرموا الأمراء رياء.

صفة الرجال الذين يشهدون بالكذب والزور.

صفة الرجال الذين ماتوا ولم يتوبوا عن الخمرة.

صفة الرجال الذين نفوسهم كبيرة وأخلاقهم سيئة ويتكبرون على الخلق وإذا ماتوا فإن الله تعالى يعذبهم يوم القيامة بين العقارب والحيات.

وقبل أن نختم هذا الجزء من دراستنا لا يسعنا إلا أن نلاحظ ما يلي:

أولاً: المخطوطة منسوبة إلى أنس بن مالك ولكنها تختلف في البينة والتركيب عن روايته كما جاءت في صحيح البخاري فهي كرواية ابن عباس إعتورها التبديل وإعادة التكوين والصياغة فهي وثيقة فولكلورية لا تخلو من مؤثرات التصوف.

ثانياً: موضعا الجنة والجحيم إختلفا عن معظم ما قرأناه في الروايات والقصص فزيارة الجنة تأتي في نهاية الرحلة في الأعم الأغلب. أما في معراج نامه فتأتي زيارة الجحيم في النهاية وزيارة الجنة قبلها مباشرة بينما يأتي الجحيم في السماء الخامسة في الرواية الشعبية لابن عباس أي رؤياها أما موضعها فالأرجح انه في الأرضين السبع.

ثالثاً: مشهد تقريب الأقداح يأتي قبل مقام القربة بين سدرة المنتهى والحجب وكل ذلك من مؤثرات التصوف على تركيب القصة بينما يأتي تقريب الأقداح قبل الدخول إلى بيت المقدس في الأعم الأغلب.

رابعاً: يضيف نص معراج نامه أنبياء آخرين لا وجود لهم في الروايات الأخرى كيعقوب مع يوسف في السماء الثالثة ونوح مع إدريس بالإضافة إلى موسى في السادسة وإسماعيل وإسحق ولوط في الخامسة.

خامساً: ما من إشارة إلى الخاتمة التقليدية بالعودة إلى مكة وأخبار قريش.

التصوير والرمز

يمتاز المعراج من حيث أسلوبه بخصائص ثلاث: الرمز، والتصوير الفني، والبناء المعماري من حيث إطار القصة وخطتها العامة وقد يطغى واحد من هذه الأبعاد أو أكثر على أنواع أو أشكال من قصص المعراج. فالصوفيون أميل إلى الرمز أما الفولكلوريون فأميل إلى الوصف والتصوير وعلى حين أن بنية القصص تختلف من حيث خططها العامة إلى أن معماريتها من الإسراء إلى بيت المقدس والصعود من الصخرة إلى السماوات السبع وما فيها من الأنبياء والملائكة والعجائب وزيارة الجحيم والنعيم والوصول إلى سدرة المنتهى فالعرش وخطاب العزة الإلّهية هي قاسمها المشترك.

وينبغي لنا أن ننوه بثلاثة رموز حفلت بها معظم أشكال القصة وهي غسل قلب العارج وتطهيره، وإغراؤه بالأصوات الثلاثة وتقريبه إلى الملأ الأعلى بالأقداح إثنان، ثلاثة وفي بعضها أربعة.

أما الرمز الأول فهو ألصق بقصص مولد الرسول منه بمعراجه ويحتفل الصوفيون به أكثر من غيرهم ولعله كالحجب من إضافاتهم.

تروي لنا مصادر السيرة أن ملائكة أخذت الرسول عندما كان له من العمر سبع سنوات في حجر حليمة شقوا صدره وأخرجوا قلبه وغسلوه من الشر أو أخرجوا منه الشيطان ويرمز ذلك كله إلى اختيار الحق له للنبوة.

ويزعم بعض الصوفية أن الحادثة قد تكررت قبل العروج أيضاً تمهيداً لمواجهة الحق.

وطبيعي أن نفهم ذلك مجازاً يرمز إلى حقيقة نفسية لا فيزيائية فنقاوة المرء وبراءته إن في حالة النبوة أو الولاية خبرة إنسانية معهودة.

أما رمز الأصوات الثلاثة الذي توفرت عليه مخطوطتنا ونسخة القشيري فيمثل مغريات تحاول أن تثني العارج عن قصده وهي خاصة من خواص أدب الرحلات كالأوذيسة وغيرها عويس وأوديب وقبلها جلقامش الذي يرفض عشتار التي صرعت عشاقاً كثيرين لم تثن هؤلاء الأبطال عن عزمهم المخوفات ولا المغريات وأتموا غاياتهم وأنجزوها وملامح كهذه نراها أيضاً في قصص ألف ليلة

وليلة في رحلات السندباد وعلاء الدين وما شابه.

مهما يكن فالرسول بينما كان في طريقه من مكة إلى بيت المقدس فإذا بأصوات يسمعها عن يمين وشمال وجهات مختلفة واحدها يمثل النصرانية وثانيها يمثل اليهودية وثالثها يمثل الدنيا بصورة امرأة مشرقة الجمال والحسن ولم يستجب الرسول لواحد منها موحد العزيمة والقلب على إنجاز قصده وغايته، كما سمع صوت صخرة استقرت الساعة في قصر جهنم وهي ما انفكت تهوي خمسمائة عام.

والعارج الذي تتوزعه أصوات التراث الديني المعهود والمرأة الدنيا التي تذكرنا بعشتار والصخرة الخشية يختار الصعود إلى الله والملأ الأعلى ويرفض المغريات.

أما الأقداح فتختلف في العدد كما تختلف في المحتوى ولكنها تتفق في الرمز، ففي مخطوطتنا هي ماء وخمر وحليب، الماء يرمز إلى الطوفان والموت، والخمر إلى الضلال والحليب إلى النقاء والصفاوة، طبعاً يختار الرسول الحليب وهو من عناصر الخصب على الغرق والضلال.

أما نسخة هرات فتستبدل الماء بالعسل، ويتضمن حلاوة الحس واللذة وكذلك يختلف تقريب الأقداح فيها في الموضع إذ تجعله هذه في مقام القربة قبل مواجهة الحق بينما تجعله تلك في بيت المقدس ويرمز إلى الطهارة ككل وحسن الاختيار.

ويستخدم ابن عربي[٢٥] الرمزين: غسل القلب وتقريب الأقداح معاً ولكنه يقتصر على الخمر كرمز لكشف السر واللبن كرمز لميراث النبوة ويستثني الماء رمز ميراث التمكين كل ذلك في باب واحد من معراجه (هو باب العقل والأهبة إلى الإسراء) بأسلوبه المسجع نثبته منه ما يلي:

قال السالك: ثم احتجبت عني ذاته، وبقيت معي صفاته فبينما أنا نائم وسر وجودي متهجد قائم جاءني رسول يهديني سواء الطريق، ومعه براق الإخلاص، عليه لبد الفوز ولجام الإخلاص فكشف عن سقف محلي وأخذ في نقضي وحلمي، وشق صدري بسكين السكينة، وقيل لي تأهب لارتقاء الرتبة المكينة، وأخرج قلبي في منديل، لآمن التبديل، وألقي في طست الرضا، بموارد

القضا ورمى منه حظ الشيطان وغسل بماء (إن عبادي ليس لك عليهم بسلطان) ثم يقول: وأتيت بالخمر واللبن فشربت ميراث تمام اللبن وتركت الخمر حذاراً من كشف السر بالسكر.

وليلاحظ معنا القارىء كيف تتراوح هذه الرموز بين حقائق السيرة ومعجزاتها وتأويلها الصوفي.

أما خاصة التصوير الفني فيغلب على قصص المعراج الفولكلوري، قسم سن هذا التصوير يقوم على التخيل المبدع كقوله:

ألا ترى إبليس لما تكبر على آدم وقال أنا خير منه انقطعت أجنحته وخرج من رحمة ربه عزّ وجلّ. وقد أشرنا في تحقيقنا للمخطوطة إلى ملامح إيكاروس الذي طار بأجنحة الشمع إلى الشمس فذابت قبل وصوله إليها وسقط.

وكقوله أيضاً:

«ورأيت رجالاً اسودت وجوههم والحيات مطوقات أعناقهم تلدغهم فتهترىء لحومهم ثم يعودون خلقاً جديداً سوياً». «فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم» وهذا يذكرنا بالوصف القرآني لبعض أهل جهنم «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت»(٢٦).

كما يذكرنا أيضاً بالآية (٥٦) من سورة النساء: «إن الذين كفروا بآياتنا، سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً»(٢٧).

هذا التكرار الذي لا ينتهي لفصول الألم والعذاب له موازيات في الأدب اليوناني في سيزيف وبروميثيوس الذي عاقبته الآلهة لسرقته النار المقدسة تقيده السلاسل على قمة الجبل تنهش صدره أو كبده النسور في النهار ليعود في الليل خلقاً سوياً لتتكرر المأساة.

وهكذا قد اكتست ظاهرة التشكيل الفني بالكلمة أهمية خاصة في أدب المعراج لموقف الإسلام المعروف من فنون الرسم والتصوير والنحت وما إلى ذلك. فالكلمة هي بمثابة الحجر واللون والخزف التي يمكن أن يضع منها مئات

الصور والنحائت وهكذا كان إذ يحس القارىء أحياناً أنه في حضرة هذه الفنون عبر الكلمة التي لا يحاسب عليها الكاتب ويستمتع بها القارىء كأنما هو أمام جدران المدن القديمة بكل فنونها ورموزها أو كأنما هو في حضرة صور وتماثيل من بابل وأشور وماري وأوغاريت وبعلبك وتدمر.

من ملائكة الثلج والنار إلى الوجه الواحد المتعدد والملاك ذي السبعين رأساً وجناحاً أو ملاك على شكل ديك رأسه تحت العرش، ورجله في الأرض، في وسطه ملاك يجلس على كرسي من نور أضف إلى هذا مركبات صور الثواب والعقاب المثيرة في الجحيم والجنة وغير ذلك، فالتشكيل الفني بالكلمة هو من أهم الظواهر الأسلوبية في أدب المعراج يهدف منه الفولكلوريون إلى دهشة الحس وإثارة العجب فالإيمان. أما الصوفيون فيتجاوزونه إلى الكشف والحدس والتأويل والرمز وهذا كله كان سبيلاً لمقولات ورموز التراثات القديمة التي دخلت في حوزة الاسلام أن تمر عبر المعراج هذا المحول الفكري والفني الذي أعطى كثيراً من الأقانيم القديمة كسوة الدين الجديد.

ويأتي معراج نامه برسومه المزدوجة، مرة بالكلمة والعبارة ومرة بالألوان والرموز والصور، مصداقاً على اجتهادنا هذا فيدخل الرسم والتصوير إلى حوزة الفنون الاسلامية دخولاً واسعاً في لوحات معراج نامه الثماني والخمسين. لكن المعراج بالدرجة الأولى في كل أنواعه هو بنية أدبية رمزية استوعبت الخبرات الروحية والتصورات الإلهية للعرب والفرس والأتراك ومن بعدهم الطليان في الكوميديا التي بينت هذه البنية وإن اختلفت من حيث جوهر الرؤيا وهذا بالضبط ما فعله البسطامي ومحي الدين بن عربي وسنائي وفريد الدين العطار الذي تجاوزهم جميعاً لا بالرؤيا بل من حيث إبداع الصور والرموز، وذلك وصف مخطوطتنا المبدع لإسرافيل ملك البعث والقيامة والصور الذي فيه ثقوب بعدد أرواح البشر، كيف يلتقمه ويتأهب للنفخة، يستطيع القارىء أن يرجع إليه في النص.

ونعتقد أن وصف الملائكة هو من إضافات القصص الاسلامي على حديث المعراج الأصلي الذي مر مروراً كريماً على الملائكة ولم يسهب في أوصافها وأجنحتها ووظائفها، فإسرافيل هذا يذكرنا بملك الروح الموكل بسرادقات العرش الذي يسبح ريشه الخالق بلغات مختلفة وقد مر ذكره في نص القشيري هذه

الأوصاف وأكثرها إبداعاً وتركيباً هي الملائكة التي لها وجوه متعددة أو ملائكة العناصر التي تعكس التعدد في الوحدة هذا الموضوع الذي تؤكد عليه روايات المعراج الفولكلورية والصوفية على حد سواء رغم اختلاف العمق والأبعاد.

وقد أحسن البسطامي الترميز بها في رؤيته لملك له أربعة وجوه شاهده في السماء الثالثة من صعوده:

وجه يلي السماء وهو يبكي لا تسكن دموعه أصلاً.

ووجه يلي الأرض ينادي يا عباد الله اعلموا يوم الفراغ يوم الأخذ والحساب.

ووجه يلي يمينه إلى الملائكة يسبح بلسانه.

ووجه يلي يساره يبعث جنوده في أقطار السموات يسبحون الله تعالى فيها.

فهي تمثل طرائق مختلفة وتجارب معينة من فقه وزهد وعلم في المجتمع الاسلامي تمجد الورع والتقوى والعبادة وقوة الأعمال وعجائب الله، قال الملاك لأبي يزيد ممتحناً ومغرياً لعله يتيه عن القصد في التوحد مع الخالق وهو مقام المعرفة:

تريد أن تنظر إلى عجائب الله؟

قلت بلى، فنشر جناحاً من أجنحته، فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل أظلم ضياء الشمس من ضوئها ثم قال تعال يا أبا يزيد واستظل في ظل جناحي حتى تسبح الله وتهلله إلى الموت، فقلت له الله قادر على أن يغني عنك ثم هاج من سري نور من ضياء معرفتي أظلم ضوؤها أي القناديل من ضوئي فصار الملاك كالبعوضة في جنب كمأة[٢٨].

أما في النسخة التي ترجمت إلى التركية فالملاك هذا تصبح فيه الوجوه رؤوساً فهو بأربعة رؤوس: راس آدمي ورأس أسد ورأس عنقاء ورأس ثور مذكراً ايانا بأرجل العرش التي على هيأة مختلف أنواع المخلوقات التي تطلب الرزق لأجناسها.

إلا أن النسر هنا يصبح عنقاء، والعنقاء طائر خرافي لا وجود له، كالفينيق

عند السوريين واليونان، وكطائر السمندر أو السمرمر في العصور المتوسطة والمتأخرة عند العرب والعنقاء بديل قديم لهما.

أما البناء العام لقصة المعراج وبنيتها المعمارية والرمزية ودلالاتها الروحية ومصاحباتها الفكرية والحضارية فستكون نقطة ارتكاز هذه الدراسة فيما يلي من الفصول.

فريد الدين العطار (١٢٢٠م) «سبعة آلاف بيت مزدوج»
«معراج نامه» «منطق الطير» مؤلفان بالفارسية.

أنهى دانتي مخطط الجحيم في (١٣٠٥م)
من الكوميديا الإلهية باللغة الإيطالية

(رسالة الغفران)(أبو العلاء المعري (١١٥٦م)

جميل صدقي الزهاوي (١٩٣٦م)
«ثورة في الجحيم»

بنت الشاطىء «الغفران»
نشرت ١٩٧٠م «مسرحية»

عز الدين المدني «مسرحية الغفران»
نشرت ومثلت (١٩٧٦م)

ـ أعطيت سنة الوفاة ما لم يشر إلى غير ذلك.
ـ (م اختصار ميلادية).

إيضاح رقم (١)
تطورات المعراج ومؤثراته

الإسراء (القرآن ٢١ ـ ٦٢٠م)

المعراج

السيرة: (ابن إسحق ٧٦٨م)

معراج نامه عن رواية ابن أنس ترجمة مير حيدر إلى التركية الشرقية في هرات (١٤٣٦ م)

(السنة: ابن عباس (٦٨٨م) (أنس بن مالك ٧١١م) البخاري رواية أنس

هناك ما يقارب أربعين رواية لحديث المعراج للصحابة والتابعين وتابعي التابعين تتضمنها كتب الأحاديث والسنة.

البسطامي (٨٧٥م) «رؤيا أبي يزيد»

ـ أبو القاسم القشيري «كتاب المعراج» توفي (١٠٧٤م)

النسخة الأندلسية (١٢٦٤) ترجمت إلى اللغات الإسبانية اللاتينية والفرنسية في أشبيلية.

سنائي (١١٥٠م) «سير العباد إلى المعاد» مؤلف بالفارسية

محي الدين بن عربي (١٢٤٠م) «الإسراء إلى مقام الأسرى» مؤلف بالعربية

مكة
البراق وجبرائيل
لا ذكر للأصوات
القدس
المعراج

حليب، خمر، ماء
خمر
حليب
تقديم الأقداح

فلك القمر
فلك عطارد
يمر أمامه فريقان

عيسى ويحيى
السماء الثانية

آدم

زيارة النار

السماء الأولى: مالك خازن النار حيث الجحيم والمعذبون لا يتجاوزون الأربع فئات:

١) رجال يأكلون حجارة من نار تخرج من أدبارهم وهم آكلو أموال اليتامى
٢) رجال تطأ بطونهم المتورمة جمال عطشى قبل أن يرموا في النار وهم المرابون
٣) رجال يأكلون اللحم الخبيث ويتركون اللحم الطيب وهم الزناة.
٤) نساء معلقات من أثدائهن وهن اللواتي يرضعن غيرأولادهن ويحرمون هؤلاء.

* رواية ابن إسحق كما في السيرة والأفلاك، أضفناها للإيضاح.

زيارة الجنة

رؤية زيد بن حارثة فقط

البيت المعمور
السماء السابعة

إبراهيم

فلك كيوان ـ زحل

السماء السادسة

موسى

فلك المشتري

السماء الخامسة

هارون

فلك المريخ

يبتسم لصانعي الخير من أبنائه

ويعبس بالأشرار

السماء الرابعة

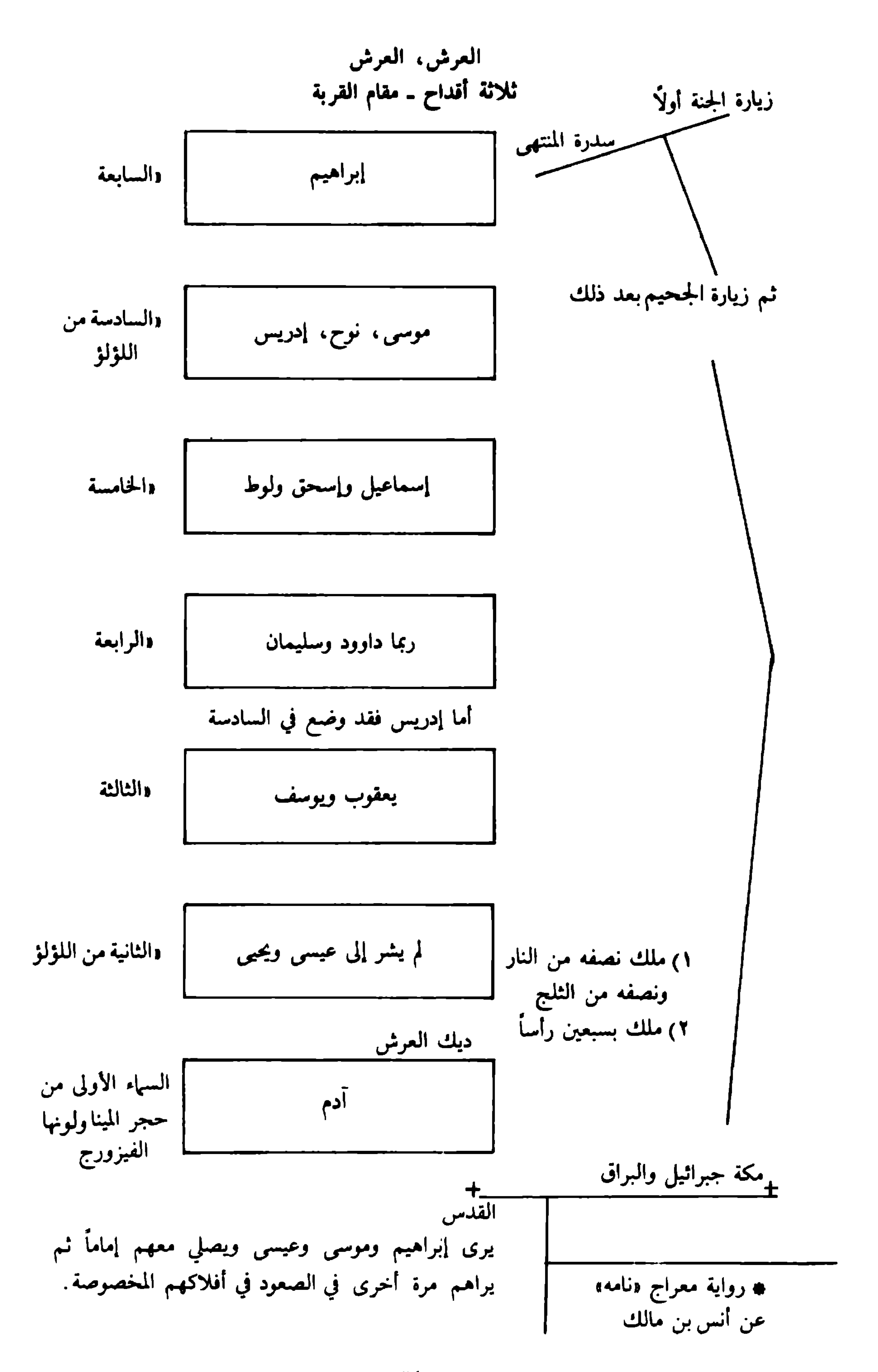
إدريس

فلك الشمس

السماء الثالثة

يوسف

فلك الزهرة


العرش، العرش
ثلاثة أقداح ـ مقام القربة
زيارة الجنة أولاً
سدرة المنتهى
ثم زيارة الجحيم بعد ذلك
«السابعة
إبراهيم
«السادسة من
اللؤلؤ
موسى، نوح، إدريس
«الخامسة
إسماعيل وإسحق ولوط
«الرابعة
ربما داوود وسليمان
أما إدريس فقد وضع في السادسة
«الثالثة
يعقوب ويوسف
«الثانية من اللؤلؤ
لم يشر إلى عيسى ويحيى
١) ملك نصفه من النار
ونصفه من الثلج
٢) ملك بسبعين رأساً
ديك العرش
السماء الأولى من
حجر المينا ولونها
الفيزورج
آدم
مكة جبرائيل والبراق
القدس
يرى إبراهيم وموسى وعيسى ويصلي معهم إماماً ثم
يراهم مرة أخرى في الصعود في أفلاكهم المخصوصة.
* رواية معراج «نامه»
عن أنس بن مالك

هوامش

الباب الأول

(١) أنظر: Nazeer El — Azma, «Some Notes on the Impact of the Story of the miraj on soufi literatore» the Muslim World, LXIII, No, 2 1973, PP. 93 — 104.

- نذير العظمة، المعراج: «دراسة في الرمز والرؤيا» (المعرفة) جـ ١٧١ (مايس ١٩٧٦) ص ١٧ - ٣٣.
- أنظر أيضاً نذير العظمة«المعراج والتقويم الصوفي» (عدد ١٨٠٦ - ١٩٧٧ ص ٣٦ - ٥٨).
- نذير العظمة، «النور والحجاب بين التصوف والفولكلور» (المعرفة) جـ ١٨٠ (شباط ١٩٧٧) ص ٣٦ - ٥٨.
- أنظر البخاري (صحيح البخاري) جـ ٤، (القاهرة ١٣٧٨ هـ) ص ٦٦ - ٦٩.
- نذير العظمة، «الكوميديا الإلهية ومخطوطة المعراج الأندلسية» (المعرفة) عدد ٢١٣ (تشرين الثاني ١٩٧٩) ص ٦٦ - ٨٧.
- نذير العظمة، «المعراج والديالكتيك الصوفي» (فكر - بيروت) عدد (آب ١٩٨٠) ص ١٨١ - ١٩٠.

(٢) أنظر البخاري (صحيح البخاري) جـ ٤، (القاهرة ١٣٧٨ هـ) ص ٦٦ - ٦٩.

- Ibn Ishaq Al sira trans. by Gwillaume, the Life of Muhammad Oxford PP. 181 — 187.

(٣) قرآن كريم، سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٤) مخطوطة أملكها لحسين خزوم، (هذا معراج النبي صلعم) (١٢٩٩ هـ) ص ٣٤.

- أنظر أيضاً ابن عربي«الفتوحات المكية»جـ ٢ القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٥٥ حيث يعطي وصفاً مقارباً لحملة العرش.

(٥) تتضمن مخطوطة هرات أيضاً كتاب«تذكرة الأولياء»، ولفريد الدين العطار كتاب بهذا العنوان، لم يستغرق نص المعراج أكثر من ست وثماني صفحة من المخطوطة وتاريخ النسخ يقابل سنة (١٤٣٦) ميلادية.

(٦) أبيض بدون تعريف بالأصل

(٧) في الأصل رجله

(٨) الأصح سبعون
(٩) الأصح نوعاً.
(١٠) راساً
(١١) ناقصة في الأصل
(١٢) مبتورة في الأصل
(١٣) مبتورة
(١٤) ناقصة
(١٥) الأصح تخرج
(١٦) ناقصة
(١٧) الأصح (وعما).
(١٨) مبتورة
(١٩) مبتورة
(٢٠) مبتورة
(٢١) الأصح: إنه عائد على القصر
(٢٢) مبتورة
(٢٣ ـ ٢٤) الأصح اللاتي أو اللواتي.
(٢٥) ابن عربي الرسائل «الإسراء إلى مقام الأسرى» حيدر آباد الدكن ١٩٤٨. ص. ١١ ـ ٩.
(٢٦) قرآن، سورة: ١٤ آية: ١٨.
(٢٧) قرآن، سورة: ٤ آية: ٥٦.
(٢٨) القشيري كتاب المعراج القاهرة ١٩٦٤ ص ١٣١.

الباب الثاني

في الرمز والرؤيا

في الرمز والرؤيا [١]

يتجلى المعراج وثيقة فكرية أدبية تصور لنا آراء المسلمين وتصوراتهم فيما وراء الطبيعة كما تزودنا بأنماط من وجهات النظر والتفكير في صلة الإنسان بالله والإنسان بالإنسان والإنسان بالكون وتلقي أضواء كاشفة على المعتقدات والأنظمة الروحية والاجتماعية وخاصة في التصوف.

لقد اكتفى القرآن بالالماع إلى حادثة الإسراء دون المعراج من مكة إلى بيت المقدس في الآية الكريمة «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انهُ هو السميع البصير» [٢]. لكنه لم يشر صراحة إلى حادثة المعراج إلى السماء رغم أن أهل التصوف يصرون على تفسير آيات سورة النجم بأنها تتحدث عن عروج الرسول الأعظم إلى السماء ورؤية وجه الحق جل جلاله [٣].

فهم يخرجون الآيات من حيز الزمان والمكان والمناسبة ويفسرونها تفسيراً رمزياً يدعم وجهة نظرهم. يعتقدون أن كلا من الإسراء والمعراج قد وردا في كتاب الله عزّ وجلّ وأن العروج إلى السماء والوصول إلى وجه الحق والمشاهدة هي آداب قرآنية أسبغت نعمتها على الرسول العربي فكذلك يمكن إسباغها على المجاهدين المتطهرين المتعبدين من عباد الله.

وتكاد عقيدة وحدة الشهود تشكل حجر الزاوية في بناء نظامهم الروحي والفكري فهم لذلك يصرون على تفسير سورة النجم بهذه الصورة أي إنهم يفسرونها تفسيراً رمزياً يتمركز حول رؤية نور الباري ومشاهدته والوصول إليه.

رؤيا البسطامي

كان أهل التصوف السباقين في الاستفادة من قصة المعراج ومغازيها الروحية. فإطار المعراج ومضمونه ومراميه يكاد يكون لنا مرآة تعكس لنا نظام الطريق الصوفي ومساره ومعتقداته. فالبسطامي أبو يزيد (٨٧٥م) في رؤياه المعروفة بمعراج أبي يزيد ينسج على منوال هذه القصة الرمزية فيتصور طيراً يحمله ويعرج به إلى السماء فيصف لنا الملائكة والآيات التي يشاهدها في كل سماء حتى ينتهي به الصعود إلى السماء السابعة حيث يرى الرسول ومن ثم يتجه إلى البارىء الخالق فينعم برؤية نوره والوصول إليه. ومغزى رؤيا البسطامي رضوان الله عليه هو أنه أعطى ملك السماوات وما فيها من آيات كبرى ولكنه فضل عليها السفر إلى الحق والوصول إليه والتوحد بشهوده، ولما كانت هذه الرؤيا تختصر لنا آداب السلوك على الطريق الصوفي وبلوغ وحدة الشهود بين الخالق والمخلوق لذا جاءت موجزة مفيدة فحافظت على تركيب وإطار القصة كما وردت في الأصول ولكنها من حيث المضمون تطورت تطوراً كبيراً وانتقلت من قصة دينية تاريخية إلى قصة رمزية تتجلى عن معتقدات التصوف من عودة الفرع إلى الأصل والقطرة إلى البحر وتنعم المخلوق بنور الخالق. ولما كان البسطامي يحب الله لوجهه لا خوفاً من غضبه أو رغبة في ثوابه أسقط الزيارة إلى الجحيم والفردوس مبقياً على مسار القصة في الرحيل إلى البارىء والوصول إليه والتوحد بمشاهدته.

وأسلوب البسطامي هو أسلوب الشطحات ـ الرؤية، والإشارات الاشراقية التي تعتمد التصوير والرمز والإيماء دون الصراحة والافصاح.

وهكذا فإن البسطامي هذا الصوفي الرؤيوي فتح الطريق أمام غيره من المتصوفة لاستغلال الطاقة الرمزية المعبرة لهذه القصة العظيمة. وأصبح المعراج القصة المفضلة عندهم وارتبطت أيما ارتباط بتفكيرهم وتكوينهم الروحي ومعتقداتهم ورموزهم.

معراج محيي الدين بن عربي ورمزيته

ثم جاء محيي الدين بن عربي فألف كتاباً كاملاً سماه «الإسراء إلى مقام الأسرى» يصور لنا فيه عروج الروح من عالم الكون إلى عالم الأزل فيسري به

من الأندلس إلى بيت المقدس ومن هناك يصعد إلى أفلاك السماوات السبع فالعرش فالكرسي وسدرة المنتهى واللوح المحفوظ، ومنها إلى عوالم الملأ الأعلى.

وقد صاغ ابن عربي كتابه بأسلوب مسجع تغلب عليه الإشارات والرموز الصوفية فصور استعارات الكتاب في مجملها تحمل معاني مزدوجة: عادية وترتبط بأصولها من العلوم الإسلامية كالحديث والفقه والتفسير والفلك والتاريخ والتصوف. ورمزية تكشف عن أسلوب رمزي تلقيني تبين معاني الطريق الروحي للسالك ومراسيمه ومراتبه والغاية من سلوكه عليه.

ويعتقد ابن عربي أن السلوك لا يقصد إلى وحدة المشاهدة فحسب كما يذهب البسطامي بل يتجاوز ذلك إلى إدراك وحدة الوجود المتمثلة بوحدة الوحي ووحدة الروح التي تتجلى في الإرادة الإلهية المتجسدة في سلسلة متكاملة من الأنبياء والكتب السماوية بدءاً من آدم عليه السلام إلى إبراهيم فموسى فهارون فإدريس فيوسف فيحيى فعيسى ومحمد عليهم صلوات الله أجمعين.

ولكي تصعد الروح من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى أمامها سفران في اتجاهين مختلفين أولهما أفقي يتمثل في كتاب الإسراء في الرحلة من الأندلس إلى بيت المقدس يقطع فيه السالك المسافر ست مراحل: سفر القلب، عين اليقين، صفة الروح الكلي الحقيقة، العقل، النفس المطمئنة، والسفر الثاني هو سفر عمودي يتمثل في نفس الكتاب في عروج السالك إلى أفلاك الرسل ومنها إلى أفلاك الروح العليا.

وتتخلل الكتاب قصائد في التصوف لا تخرج في مضمونها ورموزها وصورها ومراميها عن أسلوب ورسالة كتاب الإسراء إلا أنها أكثر توهجاً وحرارة وعفوية من أسلوب السجع الثقيل وأقل تعقيداً فشعر ابن عربي في كتاب الأسرى يبدو مطبوعاً بالنسبة إلى نثره المسجع الذي يحفل بالتصنع وبطء الحركة.

وأسلوب ابن عربي في شعره ونثره يمتاز بالرمز والإيماء والإيجاز الشديد إلى حد الإبهام وما يرافق ذلك من غموض يتضارب مع أهداف الكاتب لذا كان التعاطف مع الكتاب من الشروط اللازمة للمضي في فهم مضامينه وغاياته.

وكتاب الإسراء له أهمية خاصة بـالإضافـة إلى كونـه رسالـة إرشاد في التصوف وعلومه كما عرف في الأندلس والمغرب.

إذ كان المؤلف قد أنجزه في فاس قبل الهجرة إلى المشرق فهو يعطينا صورة مبكرة عن فلسفة ابن عربي وتصوفه الذي وصل إلى أوج ثمرته ونضجه في كتابي فصوص الحكم والفتوحات المكية اللذين أنجزهما المؤلف في المشرق.

الرؤيا والرمز عند فريد الدين العطار

فريد الدين العطار: هو شاعر فارسي متصوف يعتقد أنه توفي أثناء حملة جنكيز خان على خراسان وقد حذا العطار في كتابه «منطق الطير» الذي نظمه شعراً حذو البسطامي وابن عربي في الاستفـادة من قصص المعراج وتقـاليده الصوفية.

كان البسطامي قد أحل طائراً يقوده في عروجه إلى السماء الأولى محل جبرائيل كما هي الحال في القصة الأصلية المروية عن الرسول (ص). فيما عدا هذه الإشارة الرمزية البسيطة لا نرى في قصص المعراج هذا الاستعمال الكلي لمملكة الطير ولغته والرمز على لسانه كما فعل العطار.

فالبسطامي يشير إلى الطيور للتجميل والزينة أثناء صعوده من سماء إلى سماء. أما العطار فيؤنسن الطيور في قصة تلعب فيها دور الأشخاص المتنوعي المشارب والميول وحوار يتأرجح بين المواقف الدرامية والتلقين بالارشاد والرواية.

ونجد في رواية ابن عباس ملاكاً على صورة الديك، يصيح في جوار العرش ذاكراً الله فتصيح ديوك الأرض كلها ذاكرة معه الاسم الأعظم، توقظ النور فينبثق الفجر من الليل وتغمر الأرض بضوء الرحمن. وقد اعتبر أهـل الحديث هذا الجزء من رواية ابن عباس مختلقاً منحولاً، كما اعتبروا وصف علي بن أبي طالب للطاووس السماوي في نفس القصة الاعتبار نفسه.

ليس بعيداً أن تكون هذه الإشارات المختلفة إلى الطير في أصول المعراج قد حركت خيال العطار فـابتكر لنـا معراجـاً للطيور بكـل أنواعهـا كنماذج لشخصيات إنسانية. ويحلل لنا على لسانها من منظور صوفي الرحلة من الكون الفاني إلى الكون الباقي تحليلاً رمزياً مدهشاً.

وفي ما يلي ملخص مسار الرحلة في منطق الطير للعطار:

تتجمع آلاف الطيور حول الهدهد فيقف فيها خطيباً ويحثها على الرحلة إلى وجه الحق مصدر الجمال والخير وعنوان البقاء والخلود.

«السيمرغ» وهو طائر جميل جداً يعجز عنه الوصف والتصوير، إنه طير الطيور وصورة الصور ورحلة الطير إليه هي الهدف الأسمى من الحياة، والنجاة من الهلاك والفناء، والحوزة على البقاء والأبدية.(٤).

لكن الطيور كالناس ترسف في أغلال قيودها العادية اليومية واعتباراتها الأليفة التي لا تستطيع منها فكاكاً. وتدافع في حوارها مع الهدهد عن الفتها مع الماء والراحة واعتيادها على السكينة والكسل وتفضيلها البقاء حيث هي على رحلة مغامرة مجهولة إلى «السيمرغ» فيها الهلاك المؤكد. لكن الهدهد بما أوتي من إيمان متوهج وعزيمة لا ترد يقنع الطير بالخروج من أغلالها والسفر بقيادته إلى صورة الصور.

فترحل معه الطيور أسراباً بالآلاف وتطير قبل الوصول إلى «السيمرغ» عبر أودية سبعة ترمز إلى المقامات الصوفية وما يرافقها من أحوال تسبغ على السالك من الله عزّ وجلّ بعد الرياضة والمجاهدة الروحية. فمنطق الطير من حيث المضمون كما ترى لا يختلف عن رؤيا البسطامي وإسراء ابن عربي ولكن العطار يختلف عنها من حيث أسلوبه وتصوره وطريقة الرمز.

* * *

فالوادي الأول الذي ترتحل عبره جماعة الطير هو وادي الزهد بالدنيا وطلب «السيمرغ» لوجهه لا خيفة من عقاب أو رغبة في ثواب.

والوادي الثاني هو وادي المحبة الشاملة محبة الخالق والخليقة والكون. وطالما أن الطيور ترغب في الوصول إلى السيمرغ ومشاهدته فهو يهبها الإرادة ويعدها بالقوة في الدخول إلى وادي الحب. ومفاد الرحلة في هذا الوادي تبين أن رؤيا العقل وحده لا تكفي. علينا أن نبصر بعين الروح. إن لهب الحب القدسي كفيل بأن يكشف عن الرؤيا دخان الفكر وحجبه ليتحرر الإنسان به من قيود المادة وحدود الرؤية اليومية القاصرة. وإذا اكتفى الإنسان برؤيا المنطق البارد

فلن يدرك الضرورة القصوى وحاجة الخليقة الأساسية للحب الذي لابد منه للاستمرار في السفر إلى الحق والوصول إليه.

ويأتي بعد وادي الحب وادي المعرفة، معرفة الحب والحياة والله الوادي الثالث الذي لا بداية له ولا نهاية . لكن المعرفة لا تحصل بدون مخاض الألم والتعب وطرق الروح لا تكشف للإنسان بدون مجاهدة بدنية ومعنوية. وتعظم أو تصغر مسافات الرحلة في وادي المعرفة على مقدار عزم السالك ومن يذق الأسرار الإلهية تحصل له الرغبة الحقيقية لمعرفتها.

والوادي الرابع هو وادي الكفاية والفقر . الاستغناء بالنفس عن العالم هو الحرية، هو المعرفة، هو القوة التي تحرر الإنسان من الفوز والحاجة وتطلقه قوة لا حدود لها.

ويأتي بعدئذٍ . وادي الوصول والوحدة. كل طير هو جزء من كل ريشة حلوة من ريش السيمرغ منبع الجمال ومصدر الحرية والحركة والتوحد الحقيقي معه هو قوة ما بعدها قوة. ينبغي على الطيور السفر إلى السيمرغ والتوحد به لأنه مصدر الغنى والحركة.

والوادي السادس هو وادي الدهشة التي تحصل للجزء من إدراكه إنه جزء من كل. كل الدهشة التي تتولد من الرغبة الحقيقية بالاتحاد بالسيمرغ، حيث القلب يصبح عامراً بالحب وخاوياً منه في آن واحد، ولا ري لعطشه القدسي إلا ببلوغ الوحدة بطير الطيور وصورة الصور.

أما الوادي الأخير فهو وادي الفناء بالمعنى الصوفي وفناء الأنا هو بقاؤها في الكل. فقد فنيت في الرحلة آلاف الطيور ولم يبق منها غير ثلاثين طيراً استطاعت أن تبلغ غاية الرحلة.

أما باقي الطيور فقد وصلت، كل جماعة حسب طاقتها، وادياً أو واديين أو أكثر وفنيت هنالك. أما الثلاثون طيراً فقد انكشفت عن أعينها الحجب وابصرت السيمرغ، ووصلت إليه وتوحدت به.

نظرت إليه في آخر الرحلة فلم ترَ إلا نفسها، ولم يتكشف لها في نهاية هذا السفر الطويل والمجاهدة المستديمة غير ذاتها.

من عرف الله فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف الله. هذه هي القاعدة الذهبية للحياة الإنسانية الصالحة وغاية ما وصلت إليه المجاهدات الروحية التي مارسها المتصوفة على مختلف طرقهم. وقديماً كتب على معبد دلفي «اعرف نفسك» الأمر الذي حاول أن يمارسه سقراط طيلة حياته.

وقد استطاع فريد الدين العطار بقدرته الفائقة على التصور والرمز أن يغني أدب الرحلة الصوفية وينطلق بها إلى آفاق جديدة لم تدرك من قبل.

إن كلمة سيمرغ الفارسية تتضمن تورية مدهشة وذات ارتباط فعلي بمضمون وشكل الرحلة كما تصورها العطار كما أنها تحتوي على طاقة رمزية مشعة، فالكلمة سيمرغ (سي + مرغ) وهي منفصلة تعني ثلاثين طيراً ومتصلة (سيمرغ) تعني طير العنقاء.

عندما بلغ الثلاثون طيراً السيمرغ تشكلت على صورته فنظرت وكأنها تنظر في مرآة فلم ترَ غير صورتها الكلية بعد هذه الرحلة الطويلة.

وبنية منطق الطير المعمارية فهي كبنية المعراج فالرحلة تتم على ثلاث مراحل، الأولى هي: بعد أن يستشير طائر الهدهد نبي الحكمة سليمان يعقد اجتماعاً لآلاف من الطيور ويقف بينها خطيباً يحثها على العروج إلى السيمرغ وطلبه فيتقدم كل طائر بدوره ليكشف للهدهد عن مخاوفه ونقائصه والخوف من الرحلة.

فالبلبل عاطفي يتعشق الشكل لا الجوهر.
والببغاء يمثل الوجل والخوف.
والطاووس غاو يفضل الفردوس الأرضي على السماء.
والبط مصاب بالوقاحة والغرور او الرضى عن النفس.
والحجل ضحية الحواس وأسير المادة.
والعقاب يرمز إلى الكبرياء والغرور.
والصقر يتعلق بالسلطة والسطوة.
ومالك الحزين سابح في الوهم.
والبوم بخيل كريه.
والعصفور الدوري منافق.

واستعارات المحيط والبحر والماء إنما هي رموز الحياة التي تتكلم عنها جماعة الطير. كما ان كلب الشهوة يذكرنا بصياح المرأة المزينة التي تمثل الرغبة وثني العارج عن طلبه.

ثم يتقدم من الهدهد ثلاثة وعشرون طائراً كل واحد بدوره ويفصحون عن خشيتهم وخللهم واعتراضاتهم على الرحلة فيجيب كل واحد منهم بقصة رمزية أو نادرة تنطوي على أخلاق الطريق الصوفي ومعنى الحياة وقيمة التوحد بالسيمرغ وطلبه.

أما القسم الثاني من الرحلة فهو ابتداء الرحلة عبر الأودية إلى سماء السيمرغ وقد فصلنا القول فيها وبين كل وادٍ وآخر يروي المؤلف لنا نادرة أو رمزية ترتبط بمعاني الوديان وغاياتها.

والقسم الثالث هو وصول الثلاثين طائراً إلى سماء السيمرغ والتنعم بوحدة الشهود.

والبنية على ما يرى القارىء إذا استثنينا إضافات الطيور والنوادر ما هي إلا بنية المعراج ومعماريته من مرحلة الإسراء إلى المعراج بأفلاكه السبعة فالعرش بعد سدرة المنتهى والدخول في زمن الشهود.

أما من حيث الشكل فالعطار يدمج دمجاً بارعاً فني الخرافة FABLE كما عهدناها في كليلة ودمنة وفن القص الرمزي Allegory ليعبر عن تجربته الصوفية الفريدة.

وهكذا نرى أن فكرة العروج والصعود إلى السماء في الأدب الإسلامي قد تلبست الرؤيا الحسية عند البسطامي والرمز الفلسفي التجريدي عند ابن عربي والتصور الخيالي المبدع عند العطار في مسار فكري وأدبي مترابط، ومراحل يرتبط فيها التنوع بالوحدة تنوع الأساليب والأشكال ووحدة الموضوع والتقاليد المتميزة التي ينطوي عليها أدب المعراج وقصصه.



** المؤتمر: منطق الطير

يستشير «الهدهد» النبي سليمان سيد الحكمة ويعقد اجتماعاً لآلاف من الطير وهو بمثابة المرشد في الطريق الصوفي ويخطب فيهم عن أهمية العروج إلى السيمرغ كما يستمع إلى مخاوف كل منهم وضعفه وبعد هذا تبدأ الرحلة التي لا يحيا في نهايتها غير ثلاثين طيراً.

** معمارية منطق الطير وبنيته

محاجة

يحاول بعض الدارسين أن يربط مصادر منطق الطير وإيحاءات هذا العمل الشعري المبدع بأصول إيرانية قديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام وهو أمر يدعو إلى الفضول أكثر مما يدعو إلى الاقتناع. فالكاتب المذكور مرتبط إرتباطاً عضوياً بآداب التصوف معانيه ورموزه شكلاً ومضموناً. لا أحدَ يماري في أن أدب الرحلة قديم العهد بالإنسانية وأن الإنسان منذ كان يتوقد بالشوق إلى المجهول ويحن إلى العودة إلى أصوله الروحية ومنابعه الأولى.

وقد جسد هذا الشوق في ملاحم وقصائد وأعمال أدبية خلد ذكرها في آداب العالم كملحمة «جلقامش» والأوذيسة اللتين مع اختلافهما في المسار الملحمي القصصي فإنهما بنيتا على أدب الرحلة واستكناه المجهول إلى أسرار الحياة والخلود.

ومنطق الطير لا يختلف من حيث المعنى العام عن هذا الاتجاه ولكن الأدب الخالد أكبر من أن يحصر في معانٍ عامة لا شكل لها ولا بريق ولا انعطافات أو فروق.

مهما يكن، فإن اسم الكتاب مستمد من القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة النمل «وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين»[٥].

كما أن طائر الهدهد الذي جعل منه العطار القائد الروحي لجماعة الطير هو من الرموز القرآنية.فهو الذي ينبىء نوح بظهور اليابسة في قصة الطوفان وهو سفير سليمان إلى ملكة سبأ «وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين»[٦].

ومصادر الهدهد كرمز وقصة الطوفان بشكل خاص يمكن وصلها بسهولة بقصة جلقامش.

إن أثر الحضارة للآشورية القديمة على إيران القديمة أمر لا يجادل فيه المؤرخون.

أما منطق الطير فهو ثمرة إسلامية تم نضجها وآتت أكلها في مناخ صوفي

مسلم. وإنه ليصعب على الباحث أن يعزل هذا العمل الأدبي عن خلفياته الإسلامية القرآنية خاصة مضامين ورموزاً.

أليست رحلة سفينة نوح إلى الحق وإنقاذ الإنسان والحيوان من شباك الهلاك وإبقاء عناصر الحياة الأولى طاهرة خالدة نموذجاً خالداً في أدب الرحلات؟

أضف إلى ذلك أن كتاب «منطق الطير» ككل مبني من حيث الإطار والتركيب والرمز والمسار العام على تقاليد أدب المعراج ومعراج أبي يزيد ورؤياه كان الفاتحة في هذا المجال وقد خص العطار أبا يزيد شطحاته ورؤياه بفصل خاص في كتابه « تذكرة الأولياء» كما أن للعطار ملحمة شعرية تقارب السبعة آلاف بيت بعنوان معراج نامه غير «معراج نامه» المترجمة عن العربية لرواية لأنس والذي مر ذكره في الفصل الأول ومقاصد الرحلة في كلا الأثرين هي مقاصد عليا ترمي إلى عودة الجزء إلى الكل واستعادة الانسجام إلى روح الإنسان الحائرة المضطربة منذ انفصالها عن الروح الأسمى وهبوطها إلى العوالم الأرضية.

فهي كلما تخففت من أثقالها المادية وقيودها الدنيوية وطارت أو عرجت إلى الملأ الأعلى عادت متجددة قوية طاهرة لا فرق ان رمزنا إلى فروع المتصوف والمالك إلى البارىء ورحلة الطير إلى السيمرغ بقيادة الهدهد الذي نقش على منقاره شعار الإسلام الأول «باسم الله».

أضف إلى ذلك أن تركيب الكتاب من حيث الخطة مبني على التعاليم الصوفية التي بثها العطار في مسافة الرحل محطة بين كل واديين فيأتي بقصص ونوادر رمزية مستقاة من التراث الصوفي الإسلامي وساداته وأعلامه يوردها العطار لتؤيد المغازي المتضمنة مع وديان الرحلة ومسافاتها ومعانيها وليعزز المقامات الصوفية هذه الروحية الصوفية السبعة المرموز إليها بالوديان.

وبهذا تتجلى نزعة العطار التعليمية الذي جنح الواقع بالخيال، والحقيقة بالمثال ليلقن أتباعه وقارئيه حقائق الطريق الصوفي ومبادئه بطريقة شعرية مبدعة.

والسيمرغ هذا الطائر الجميل أشبه ما يكون بالعنقاء له مواز في مصادر المعراج الأولى في وصف الطاووس لعلي بن أبي طالب كما أن في وصف الديك السماوي الذي يقف تحت العرش في روايات ابن عباس موازياً آخر لرمز السيمرغ الذي يتصدر المركز في منطق الطير وإن اختلف المضمون.

مهما يكن، فإن العطار قد استطاع أن يوحد المضامين الصوفية الروحية منها والفكرية التي عرفناها عند البسطامي وخاصة عقيدة وحدة الشهود وعقيدة ابن عربي في وحدة الوجود في رحلة واحدة وصورة شعرية مبتكرة.

فجماعة الطير التي وصلت إلى السيمرغ لم تكتفِ بالوصول والمشاهدة أي بوحدة الشهود بل تجاوزت ذلك إلى إدراك أنه لا موجود إلا هو، وهو هي كالناظر في المرآة فأيقنت أن الوجود واحد مع تعدد الصور(٧).

نتيجة

وهكذا يتبين لنا أن مضمون منطق الطير لا يختلف كثيراً عما جاء في رؤيا أبي يزيد البسطامي كما أنه لا يتجاوز الإسراء إلى مقام الأسرى من حيث المسار الروحي العام للرحلة.

يتبين لنا في النتيجة أن كلا من هؤلاء المتصوفة الكبار عاد إلى المصدر الروحي نفسه وعب منه واستفاد من تقاليد المعراج الدينيـة والأدبية وعبـأها بطاقات رمزية جديدة ترتبط أشد الارتباط بعقائد الصوفية وتفكيرهم.

وهل هناك قصة أكثر ملاءمة من قصة المعراج كبديل رمـزي للطريق الصوفي في مقاماته وأحواله؟.

ومع وحدة المصدر الروحي فإن مجال التنوع ظل مفتوحاً أمام كل منهم فانعكست لنا في كل عمل تجربة الكاتب الروحية وخلفيته الفكرية تناولاً وعلاجاً في شخصية أسلوبية واضحة المعالم.

وإذا استثنينا معراج أبي يزيد بكونه رؤيا تتخذ شكل الحلم الإشراقي بشكله ومعانيه وصوره ومفاجآته وإبهامه فإن كلا من منطق الطير والإسراء يتفقان في نزعتهما التعليمية التي ترمي إلى تبيان الطريق للسالكين الراغبين في يقظة الروح وتجددها. لكن البساطة التي يتميز بها أسلوب العطار والابتكار في الرمز والإشارة هذه العناصر كلها تخفف من وطأة النزعة التعليمية وتضعها في الظل. إنه يتسلل إلى نفس القارىء بالدهشة والمفاجأة مستساغاً بالـرغم من رموزه والضباب الروحي الذي يكتنف أفكاره، وهو مقبول لدينا دونما إعمال فكر أو إجهاد قريحة.

أما ابن عربي فهو أكثف رمزاً وأكثر تعقيداً معنى ومبنى شكلاً ومضموناً.

وعلى حين أن العطار علمنا بالإيماء والإشارة فإن ابن عربي لجأ إلى طريق أخرى في التلقين متوكئاً بشدة على طاقات المعراج الروحية والرمزية وتقاليده والعلوم الإسلامية المختلفة لينقل إلينا تعاليم طريقة الصوفي.

غير أن كلا من البسطامي وابن عربي والعطار أخرج المعراج من إطاره القصصي كما جاء في السيرة، والنسج الإخباري كما جاء في الحديث ليضعه في مسار رمزي لسفر روحي يتطهر فيه الإنسان من مادة الأرض ويصعد في سماء النفس والكون للوصول إلى الله نور كل نور ومصدر كل حركة ومآلها[٨].

وهكذا نرى أنه تكاد تكون قصص المعراج نوعاً أدبياً قائماً بذاته. إن هذه القصة هي من معجزات التصور التي أبدعتها المخيلة الإسلامية فهي إبداع الخيال الذي يجسد الحقيقة لا الوهم الذي يهرب منها إلى عوالم من هواء. والمعاني العظيمة التي تحتوي عليها قصص المعراج الرمزي تجعلها أيضاً من المنجزات الفكرية الضخمة القائمة على جدل خاص لنظام فكري روحي ملخصه أن الذات في سفرها في العالم أو رحلتها إلى فوق إنما ترمي إلى النقاء والتطهر إلى الإنصهار بلهب العالم والتجربة والخروج من ذلك كله أكثر نقاء وتجدد عزيمة في مواجهة الحياة.

الجدل الصوفي

إن تحرك الإنسان بين قطبي الأرض والسماء. المادة والروح. البشرية والله، التراب والنور، الملأ الأدنى والملأ الأعلى، وعروجه من فلك إلى فلك ثم العودة إلى الإنسانية هو جدل التجربة الروحية الإسلامية التي أدركت العالم بتجاوز الذات وأدركت الذات بتجاوز العالم رابطة ذلك كله بمثل أعلى فوق المثل ونور لا ينطفىء إشعاعه بالله الواحد الأحد الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. فالله في الإسلام هو مصدر القيم الحق والخير والجمال والحياة وهو مطلقها الذي لا يحده حد، ولا تقوى على معناه الأشكال والصور رغم أنه هو مصدرها ومعنى بقائها أو زوالها وتحولها.

هذا الديالكتيك الروحي الذي كثيراً ما عبر عنه المعراج بشكل ملحمي

ودرامي هو طراز وحده سبق الجدل المثالي الهيغلي بمئات السنين وتخطاه إلى تركيب «مدرحي» مادي روحي يتجاوز المتناقضات إلى انسجام بديع بين الذات والموضوع الروح والمادة. النفس والجسد، الإنسان والعالم، الإنسان والله.

هذا الجدل الروحي لنظام الفكر الإسلامي إنعكس في الفلسفة الإسلامية في كونها فلسفة توفيقية تحاول أن تخرج من متناقضات الإيمان والفكر، الدين والعلم، والدين والفلسفة، إلى كل واحد منسجم وقد تجلت هذه النزعة أكثر ما تجلت في محاولة الفلاسفة المسلمين في التوفيق بين الحكيمين أفلاطون المثالي وأرسطو طاليس المادي التجريبي.

ويبدو لنا هذا الجدل الروحي للإسلام أكثر سطوعاً في الجدل الصوفي الذي هدف إلى حرية المسلم وتجدده وتجاوز الإقليمية إلى العالمية. فقد استطاع المتصوفة المسلمون بتأكيدهم على قدرة الإنسان في تخطي الأرضية والطينية استطاعوا الوصول إلى سدرة المنتهى ومشاهدة نور الذات الأسمى فالمؤمن حر في اختياره أن يكون تراباً أو ضوءاً. طيناً أو أثيراً، أنا مغلقة ضيقة أو «الهو» الذي لا يبقى إلا هو. وقد افتتن هؤلاء بمقولات هذا الجدل الذي ظل ينعش الحياة الروحية في الإسلام لقرون تسرب منها إلى نصرانية القرون الوسطى مع «توما الاكويني» وغيره كما تجاوزها إلى اليهودية.

وقد تجلى هذا الجدل الروحي في عقائد الصوفية في الروح والجسد، النفس والعالم، الله والخليقة. فالحركة بين الأقطاب المتناقضة على ما يعتقدون تؤول إلى خروج الإنسان من التناقض إلى الإنسجام، من الجزئية إلى الكلية، من التعدد إلى الوحدة، ومن الفناء إلى البقاء.

فالصوفي الذي يمارس حرية الاختيار بين الله والعالم ويملك حداً كبيراً من الطاقة لتتغير الأشياء، تغيير «الأنا» فيه فيزيل حجاب العالم بينها وبين الله.

هذه الإرادة التي مارسها معظم المتصوفة المسلمين لم تكن غيباً في غيب كلها وبنقائها تطهر الأرض وتنقي الإنسان وتغلب النورانية على الترابية والخير على الشر والحق على الباطل والحب على الحقد والضغينة.

وكثيراً ما عبر هؤلاء المتصوفة عن جدلهم الروحي وتحركهم المثالي إلى فوق في تحولات الروح بين الصحو والسكر، الفقر والغنى، العبودية والحرية، الفناء

والبقاء، فعودة المخلوق إلى الخالق تترجم بمصطلحي الفناء والبقاء، ففناء الإنسان بالله بقاء له، والانفصال عن الأنا اتحاد به، وبقاء الإنسان فناء في الانفصال عن الله وهكذا. . . . .

وينطبق هذا الجدل الصوفي أيضاً على الحالات الأخرى التي كثيراً ما أولع بالتعبير عنها سادات هذا الطريق والتي كانوا يرمون من ورائها ووراء ممارستها إلى تجدد الإنسان المسلم وتجدد قوى الروح في نظرته ومساره واستشرافه، والتمتع بمزيد من الحرية إزاء قيود الإنسان والعالم.

والمعراج كقصة رمزية كانت الأداة المثلى للتعبير عن هذا الجدل بشكل ملحمي رائع فيه تكثيف للحضارة الإسلامية ومعناها في رحلة الإنسان بين الأقطاب المتناقضة وخروجه من هذه الرحلة أكثر تجدداً وعطاء وأكثر تعلقاً بالزمن الروحي. وهكذا فقد بلغ الإسلام من جهتي الخيال والتصوير وفتح المغلق على المطلق وربط الكائن والمكون والكون في رحلة جدلية دائرية، ففناء العبد في الخالق عن طريق المجاهدة هو بقاء له وبقاؤه في الانفصال عنه فناؤه. هذه الدينامية القائمة على فناء الأنا وبقاء الكل ترمي من وراء الممارسة إلى تجديد القوة الإنسانية والتخفيف من حدة الشكلية التي أكدت عليها الأعمال والعبادات في تجديد علاقة الخالق والمخلوق فالإنسان (آدم) هو من روح الله ولا سعادة للفرع إلا بالعودة إلى الأصل ثم الصدور عنه من جديد. هذا هو المغزى الأساسي من قصة المعراج الأصل الذي أكد عليها كبار سادات الطريق الصوفي والتي أصبحت قاسماً فنياً وروحياً مشتركاً بين المسلمين قاطبة من عرب وأتراك وفرس وهنود.

إن مقولات الغربة والمحبة وهي من أهم الدعائم التي قام عليها السلوك الصوفي هي أيضاً وجه من وجوه هذا الجدل فالاغتراب في العالم عن الحق باطنه الشوق إليه ومعاناة الغربة عند الصوفي جوهرها المحبة للآخر بالمعنى الفلسفي وإن كان السلب ظاهره النفي الذي يكابده فبباطنها الإيجاب لأنه يتولد عن هذا العشق الالهي الذي هو بحق عشق إنساني وإلا كيف يمكن أن يتحول العابد معبوداً وينقلب العاشق معشوقاً والمعشوق عاشقاً ويجري الإنسان من صفات ما يجري على الله ويصح أن نسمي المتجلي فيه بأسماء المتجلي.

إن ظاهرة تأنيس المطلق ـ أي جعله على شاكلة الإنسان ـ وتنزيهه في آن هي من أروع المظاهر التي اتخذتها هذه الجدلية الصوفية.

ففي كتاب الإسراء لا يناجي الإنسان الله فحسب بل يناجي الله الإنسان فهناك مناجاة طويلة بعنوان التشريف والتنزيه الذي يسبغه الإلّه على الإنسان وهي مناجاة سبوحية أشبه بصلاة يسبح فيها الله الإنسان (الكامل) تجليه الأروع والأكمل في الكون وصورته الأجمل التي خلقها من نور وجهه وطين الجنة على حد اعتقاد المتصوفة فهو خليفته على الأرض ومرآته في الكون وجمع الفرق ووحدة مظاهره المتنوعة وعقدة نقائضه المتباعدة.

فيما يلي نجتزىء طرفاً من هذه المناجاة التي يخاطب بها الله الإنسان:

أنت مرآتي ومجلى صفاتي
أنت موضع نظري من خلقي ومجتمع جمعي وفرقي
أنت ردائي، وأرضي وسمائي وأنت عرشي وكبريائي

أنت الدرة البيضاء (العقل الكلي) والزبرجدة الخضراء (النفس الكلية) بك ترديت وعليك استويت ـ وإليك أتيت ـ وبك إلى خلقي تجليت، فسبحانك ما أعظم سلطانك، سلطانك سلطاني

أنت سر الماء، وسر نجوم السماء، وحياة روح الحياة، وباعث الأموات

عبدي أنت سري وموضع أمري وهذا موقف لعلوك على كل الموجودات وتشريفك

أنت كيميائي وأنت سمائي وأنت إكسير القلوب.

وليلاحظ القارىء هذه الحرارة في العاطفة التي يبديها الخالق نحوالمخلوق والمخلوق نحو الخالق فهي علاقة محبة وعشق بالدرجة الأولى.

وليلاحظ أيضاً أن بعض الصفات الحسنى التي يطلقها الإنسان على الله تتحول في هذه المناجاة صفات لهذا الإنسان وهذا ذروة ما رأيناه في الديالكتيك الصوفي، بقي لنا منه في المعاريج الفولكلورية ظاهرة كشف المحجوب وحجب المكشوف التي تجلت في ظاهرة الحجب وعقيدة محمد حبيب الحق.

كما أن حبكة منطق الطير ورمزها المركزي قائم على هذه الجدلية التي تستخدم المرآة للتعبير عن حركتها فالطيور الباقية بعد الرحلة الطويلة لا ترى إلا نفسها في مرآة السيمرغ والسيمرغ، صورتها الكاملة لا يرى إلّاها.

والله عند ابن عربي مشبه لا ينزه ومنزه لا يشبه «ليس كمثله شيء» من حيث الجوهر فهو منزه أما من حيث تجلياته في الانسان والكون فهو مشبه أرأيت إلى هذا الجدل الذي ينقله ابن عربي بين قطبي الوجود الانسان والله؟ وينقله من الماورائيات إلى الوجود والكون.

فالمعراج في رأي ابن عربي هو حضوره «هو الله» وغيبة الانسان غيبة الحس وكل ما يرتبط به من تسطع الرؤيا والعالم، أما حضور الانسان فغيبته هو أي انطفاء الرؤيا في عتمة النفس وعبودية الطين التي لا يخلص منها المؤمن إلا بالخروج من النفس والعروج منه إليه.

فيتألف الظاهر والباطن - الجسد والروح - الشريعة والحقيقة - والمتجلي فيه والمتجلي في آن وتضيء نفس الانسان بالنور الأول.

ومصطلح «جمع الفرق» الذي كثيراً ما يردده ابن عربي «وفرق الجمع» او «الخروج» من النفس والدخول او العروج إليه على حد تعبير الواسطي ثم العودة وهكذا إن هي إلا حركة جدلية: تشتعل رؤيا الإنسان العارج بالوصول وتنطفىء ثم تشتعل وتنطفىء وهكذا حسب نقاء العارج وصفاء سريرته فهو يرتقي الأدراج بين الملأ الأدنى والملأ الأعلى عالم الطين وعالم الأزل الإنسان هو الله.

وعلى حين أن هناك من لا تنطفىء رؤياه بنعمة من الله فهو في شطح دائم وحضور والشطح هو الجري والفرح والرقص غير أن أكثر العارجين يتناوبون بين الغيبة والحضور فيضيء نور المتجلي فيهم على أدراج بأنوار مخصوصة على ما أشار إليه القشيري.

وانظر كيف يزاوج ابن عربي مفاهيم الفلك البابلي بسماواته السبع وكواكبه السيارة بمراتب الرسل والأنبياء في الأديان الموحدة وتاريخ الانسان الروحي بشكل عام حيث يجعل منها مقامات للعروج واللقاء فالمعراج معاريج هي:

معراج الآدميين في السماء الأولى نسبة لآدم.
ومعراج العيسويين في السماء الثانية.
ومعراج اليوسفيين في السماء الثالثة.
ومعراج الإدريسيين في السماء الرابعة.
ومعراج الهارونيين في السماء الخامسة.
ومعراج الموسويين في السماء السادسة.
ومعراج الإبراهيميين في السماء السابعة.[٩]

والنسبة لهؤلاء الأنبياء لا تعني ديناً أو ملة بقدر ما تعني حضوراً مخصوصاً ورؤيا واجتماع الفرق بعد افتراق الجمع.

ثم يأتي فلك سدرة المنتهى التي تنتهي عندها أعمال العباد ولا تتجاوزها رؤياهم، لم يتجاوزها غير الرسول العربي إلى فلك العرش، فالمعراج المحمدي هو أعلى المعاريج وأسماها والنور المحمدي هو خاتمة الأنوار ووحدتها جميعاً ولد مع آدم وانتقل مع الأنبياء وإليهم حتى وصل إلى محمد بن عبد الله أكرم العارجين.

والمؤمنون يرقون هذه الأدراج كل حسب خروجه من نفسه والعروج منه إليه.

وهكذا فإن ابن عربي يحل التقويم الصوفي - الروحي - محل التقويم الزمني فيجعل آدم الأخير في القرب من الله إذ لا يتعدى السماء الأولى مع أنه أول في الخليقة ويجعل محمداً أولاً بخلق نوره ثم خلقه في الزمن وهو آخر الأنبياء من حيث ذاك ويبدع ابن عربي تقويماً جديداً في ضوء هذه الجدلية.

إن الفكر الصوفي أو المعرفة الصوفية التي توسلت الكشف والحدس كما توسلت الإشراق والرؤيا والرمز لم تؤد إلى تعميق الإنسان المسلم في تحركه اليومي بين السلطان والمحراب والخبز بل حصناه ضد قتل الروح الذي مارسه عليه كثير من الفقهاء المرتزقة.

إن الكشف عن هذه الجدلية الصوفية هو من أعظم ما أنجزناه في هذه الدراسة لا لأن الديالكتيك بشقيه الهيغلي المثالي والماركسي المادي هو من أهم مقولات الفكر الحديث ومحركاته بل لأنه يضع أيدينا على الحقيقة ويبصرنا

بانتساب هذا الفكر إلينا في صورة ما بعد أن جهدنا في الانتساب إليه.

وما يربطنا بالتراث ليس وجهه السلفي بل نبض الإنسان فيه ومستقبليته، أي التراث وفي التحليل الأخير في تراثنا كما في التراثات الأخرى كل ما هو خارج الإنسان يزول إلى النسيان وكل ما للإنسان يبقى في الإنسان بالفكر والوعي والحياة والحركة.

لقد تسلل تأثير البسطامي وابن عربي (١٠) الفكري والأدبي إلى الأدبين التركي والفارسي بشكل خاص أما منطق الطير فإنه خرج إلى الصعيد العالمي والإنساني ثمرة فنية خالدة.

هوامش

الباب الثاني

(١) أورد كل من ابن كثير والسيوطي حوالي أربعين رواية لحديث المعراج عن الصحابة ـ والتابعين ـ كابن عباس (٦٨٨ م / ٦٩ هـ) ومالك بن أنس (٧١١ م / ٩٣ هـ) وغيرهما.

ـ ورواه البخاري ومسلم في الصحاح وسرد القصة ابن إسحق في السيرة وابن هشام.

ـ انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٤ (بيروت ١٩٦٦) ص ٢٣٩ ـ ٢٨٠.

ـ انظر ايضاً السيوطي (الخصائص الكبرى) ج ١ (القاهرة ١٩٥١) ص (٣٤٥ ـ ٣٧٧) وقد جمع القشيري (٤٦٥ ـ ٣٧٤هـ) قصص المعراج المعروفة حتى زمنه القرن الحادي عشر الميلادي.

ـ كما أن هناك ما يقارب العشرين أثراً عن القصة نفسها في القرنين التاسع عشر واوائل القرن العشرين تتخذ إمّا طابعاً رمزياً صوفياً أو خطابياً وعقلياً إستوحت مصادر القصة الأولى ونسجت على منوالها.

ـ وقد أفردنا لها شيئاً في توثيقنا لدراستنا حول هذا الموضوع باللغة الانجليزية المنشورة في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب.

ـ كتاب (رياض الأنس وعلم سير أهل الحقائق) أبو زيد السهيل عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (١٢٨٣ هـ).

ـ «معراج الرسول عليه السلام»

٩٠٥ (D ١٥٠٨) ورقة ٥٩ /م ـ ٦٦/ ب

مسطرته ٢٥ مقياسه ٢٠٥ / ٣١٠ مكتوب بخط مغربي رديء.

ـ «معراج المصطفى صلعم»

٩٠٧ (١٤٥٢) ورقة ٤٥ ب / ٥٤ / ب، مسطرته ١٧ مقياسه ١٧٥ / ٢٢٠ مكتوب بخط مغربي جميل، أبو محمد عبد الله الحضرمي.

ـ «فهرس المخطوطات العربية» ق ٢، ج ١ باريس المكتبة الشرقية الأمريكية ١٩٥٤ ص ـ ١١١ ـ ١١٢.

فقرأت الأثرين الآنفين وتبين لي أنهما النسخة المغربية لقصة المعراج التي تعود في أصولها إلى رواية ابن عباس وأسلوبها إلى أسلوب عصر الإنحطاط المرصع بالسجع والمثقل بالصنعة.

(٢) قرآن كريم سورة الإسراء ١٧ ـ آية ١.

(٣) كذلك سورة المعارج لا تتصل بقصة معراج الرسول من بعيد أو قريب والآية في مفتتح السورة إنما تشير إلى قدرة الروح على الصعود إلى بارئها بسرعة بالغة بالرغم من بعد المسافة الزمنية بين الخالق والمخلوق فللجسد طرقه ومسافاته وللروح معاريجها وسبلها. قال تعالى «يسأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». سورة المعارج ٧٠ ـ آيات ١ ـ ٤.

(٤) ربما كانت العنقاء وهي طائر لا وجود له تفي بمعنى ما يدل عليه السيمرغ الذي فسره النقاد تفسيرات مختلفة. ولكنه يظل طائراً خيالياً لا وجود له أشبه شيء من حيث جمال الشكل بالطاووس ومن حيث المعنى بالخلود ومصدر التجدد بطائر الفينيق وهو طائر أسطوري أنظر معنى كلمة السيمرغ بالفارسية:

S. Haim, the one Volume Persian English Dictionary, Tehran, 1961

أسماء الوديان بالفارسية هي كما يلي: طلب، عشق، معرفت، إستغنى، توحيد، حيرت، فنا. وهي جميعاً عربية.

انظر للتوسع الترجمة الإنكليزية لمنطق الطير:

S. C. Nott? the Conference of the Birds (London: the Janus Press, 1954)

R. P. Masani, the Conference of the Birds (London: Oxford University Press 1924)

(٥) قرآن كريم، سورة النمل ٢٧، آية ـ ١٧.

(٦) قرآن كريم، سورة النمل ٢٧، آية ـ ٢٠.

(٧) لسنائي أبي الشعر الديني في الآداب الفارسية، (٥٤٥ هـ ـ ١١٥٠ م) قصيدة ملحمية تنوف على السبعمائة بيت تعالج الصعود إلى الملأ الأعلى وعنوانها: (سير العباد إلى المعاد)، مكتب المخطوطات دلهي (أملك نسخة عنها).

تختلف قصيدة سنائي في المعراج عما كتبه البسطامي وابن عربي والعطار أيضاً بكون سنائي أفرد حيزاً خاصاً منها لوصف الجحيم، وقد اعتبره المستشرق الإنكليزي نيكلسون بمثابة السابق لدانتي الألجيري في قصيدته المشهورة الكوميديا الالهية على حين مغيل بلا سيوس يرجعها إلى الأصول العربية الإسلامية.

(٨) لم يقتصر أثر المعراج وتأثيره على التراث الصوفي بل تعداه إلى الإنتاج الأدبي كرسالة الغفران للمعري التي احتفظت بشكل المعراج وتركيبه وبنيته العامة. إذ تصور المعري في هذا الإطار ابن القارح يعرج إلى السماء فيزور الجحيم والجنة ويتحاور مع أصحابهما بحوار مضمونه نقد اجتماعي وديني وأدبي.

أما رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي التي سبقت رسالة الغفران تأليفاً بسنوات معدودة (٥ ـ٦) فإنها لا تدخل هذا الباب إنها مبنية على تقاليد أدبية أخرى غير تقاليد المعراج إستمدها ابن شهيد من عقائد شياطين الشعر وإلهاماتها فعروجه لم يكن إلى جنة أو نار بل إلى أرض الأحلام يقوده إليها جني إلهامه زهير فيحاور شعراء وكتاباً مبرزين في

الجاهلية حتى عصره فيشهدون له بالفصاحة والبلاغة التي أباها عليه الحساد من معاصريه.
درس ميغيل آسين بلاسيوس المصادر العربية الإسلامية وأثرها في الكوميديا الالهية لدانتي الألجيري وتناول الدراسة من وجهة نظر مقارنة مؤكداً أن الشاعر الإيطالي لم يكن مشابهاً للمصادر المذكورة فيما يتعلق بالموضوع فحسب بل كان أيضاً مشابهاً لها من جهة الأفكار والخيالات والخطة العامة لملحمته الدينية.
تعد دراسة آسين بلاسيوس عملاً بارزاً في العلاقات الأدبية والفكرية في القرون الوسطى وسبقاً مرموقاً في دراسات الأدب المقارن. إلا أنه تعوز دراسته الوثائق الفعلية التي من خلالها تعرف الشاعر على المصادر العربية الإسلامية. فقرينة الموضوع الواحد والمشابهات في الرؤيا والتصور والرموز والخيالات بين ملحمة دانتي والمصادر المذكورة وحدها لا تكفي.
كما أن نظرية الانتقال الحي بالوسائط الشخصية عبر الأندلس وصقلية والغزوات الصليبية لا تولد القناعة الكافية بأن دانتي استقى ملحمته الدينية وعناصرها من المصادر الإسلامية والمختصون بدانتي طبعاً لا يرتاحون إلى مثل هذه النظريات في المؤثرات الإسلامية على شاعر النصرانية الأكبر.
مهما يكن، فإن حركة البحث الحديث تشير بشكل قاطع إلى وجود ترجمات لقصة المعراج إلى اللاتينية والبروفنسية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي أثبتها كاتالوغ المتحف البريطاني تحت مادة معراج. فقصص المعراج إذن انتقلت إلى الغرب لا عن طرق المشافهة فحسب بل ومن خلال الكلمة المكتوبة. مصادر آسين بلاسيوس لو تضمنت هذه المكتشفات الهامة إذن لقطعت ذلك الجدل ولأفحمت الدانتيين بالمؤثرات الإسلامية على أكبر شعراء النصرانية. انظر الباب الخامس من هذا الكتاب.
أنظر أيضاً: حسين مؤنس،(تاريخ الفكر الأندلسي)ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٥٥١ ـ ٥٢٧.

(٩) ابن عربي (الإسراء. . .) ص ٦١ ـ ٦٨.

(١٠) ابن عربي (الفتوحات. .) ج٢ ص ٣٥٥، ٣٩، ص ٨٧ ـ ٨٥، ١٩١، ص ٣٨٩.

الباب الثالث

التراث والتقويم الصوفي

التراث والتقويم الصوفي

يخطىء من يعلق تذوقه الفني للآثار الأدبية والفنية على سلطتي العقل والواقع وحدهما لأن الأدب والفن هما من نتاج النفس في تفاعلها مع الكون والوجود، وقديماً أنكر الملاحدة والمناطقة والطبيعيون حادثة المعراج لأنهم أرادوا أن يفهموها على سبيل الحقيقة وحقها أن تفهم على سبيل المجاز والرمز، هل حدث المعراج حقاً؟.

كيف تمت الرؤية أكانت بعين القلب أم بعين الرأس؟.

هذه الأسئلة تخرج بهذا الأثر العظيم من حيز التصور المبدع والرمز لحقائق النفس المتراوحة بين الأزل والكون وتجعل منه مشادة ورياضة ذهنية بين أهل الحديث والفقه والاعتزال، هذا يدلي دلو النقل والأسانيد وذلك يبرر ويعلل والمعتزلي يسلط ضوء العقل على ذلك جميعاً فيتراوح فهمهم في أطر مفاهيمهم ومعارفهم واختصاصاتهم وأمزجتهم العقلية والنفسية.

وليس المعراج من حيث المضمون غير رؤيا رآها رسول الله في ظروف المحنة والبلاء لكنها رؤيا تناولت صلة الإنسان بالتراث والوجود والله والانسان.

إن وسائل المعرفة عند المناطقة والملاحدة والطبيعيين تقوم على الحس والقياس والمنطق كما تعتمد على الاستدلال والبرهان وما إلى ذلك من أسلحة العقل.

أما الرؤيا والكشف والاشراق والعرفان والحدس وما شابه من مصطلحات الصوفية التي لها موازٍ في الحركات الفكرية العالمية الحديثة فهي أسلحة النفس إلى فهم العالم وفك طلاسمه والغازه، وهي بالضرورة لا توافق طرق المناطقة

والملاحدة ومن شابههم، الأمر الذي تنبه إليه أهل التصوف فراحوا يضعون المعراج في سياقه النفسي والحضاري والوجودي وبذلك وضعوا أيديهم على سر هذه الوثيقة الرائعة من وثائق التصور الإسلامي، وفهمها أو رؤياها للكون، التي ليست وقفاً على الفقه والاعتزال والفلسفة.

سئل الواسطي عن دنو النبي (صلعم) في المسرى فقال: خرج من نفسه ودنا منه إليه، فتدلى، فما زالت الحجب تتدلى عن محمد (صلعم) حتى وصل إلى ما أشار إليه من قوله «فكان قاب قوسين أو أدنى»[1] وذلك بقوة الأنوار التي ألبس في حال مسيره، ولولا ما حلي به من وقع الصفة عليه والتأييد بالأنوار المخصوصة لاحترقت أنوار ذلك المقام.

أما من حيث الشكل فالمعراج إن هو إلا قصة رمزية ALLEGORY أو استعارة تمثيلية موسعة تتضمن مواقف الانسان من المعرفة والله والكون.

هل حدثت ملحمة جلقامش فعلاً، والكوميديا الإلهية والفردوس المفقود وما شاكلها من الآثار الإنسانية الخالدة؟ كلها أسئلة تنفي هذه الآثار[2] عن أوطانها وتضعها في إقليم الغربة.

فالمعراج إن هو إلا تلك الرؤيا التي تصدع غياهب الحس والمسافة والزمان وتنتقل بالعارج من تقويم الزمان والذاكرة إلى تقويم الكشف والحدس إلى الزمن الصوفي الذي يكشف العالم في الله فهو من تجلياته ويعود بالإنسان إليه صعوداً على سلم الإشراق الذهبي ونسق من الإيماء والرمز.

وسلم الإشراق هذا في رؤيا النفس ان هو إلا سلم عرفان متدرج صاعد يكشف لنا ابن عربي في فتوحاته[3] عن معالمه وأدراجه فصعود العارج إنما هو نزول الخالق إليه وتدليه في مراتب التقويم الصوفي وسلمه، ونزول الله هو صعوده إليه حسب مجاهدات العشق وتجلي البارىء وإشراقه.

إن بنية المعراج المعمارية الرمزية قصد منها أن ترمز إلى هذه المراتب والذين يودون أن يفهموها بغير هذا المقياس يخرجون بها عن السياق.

لقد تمثلت قصة المعراج واستوعبت كثيراً من مآتي الحضارات والديانات التي

سبقتها إن من حيث المضامين أو من حيث الرموز فجاء أهل التصوف يسقطون عليها المعاني الرمزية للطريق الصوفي

مراتب الأفلاك والأنبياء ودلالاتهما

تختلف مكانة الأنبياء من سماء إلى سماء في قصص المعراج ورواياته المتعددة؛ ففي رؤية ابن عباس [٤] الشعبية يأتي ترتيبهم كما يلي:

إسماعيل في السماء الأولى ويحيى وعيسى في الثانية ويوسف في الثالثة وإدريس في الرابعة وإبراهيم في الخامسة وموسى في السادسة وآدم في السابعة بينما تضعهم غالبية المصادر الأولية من تاريخ وحديث كما يلي: آدم في الأولى. يحيى وعيسى في الثانية. يوسف في الثالثة. إدريس في الرابعة. هارون في الخامسة. موسى في السادسة. وإبراهيم في السابعة، وهو الأعم الأغلب عند ابن إسحق وابن هشام وابن عربي. وقد جمع ابن كثير ما يقارب الأربعين رواية لحديث المعراج وكذلك السيوطي، وأغلبيتها تحافظ على الترتيب الذي ألمحنا إليه.

تضع الرواية الشعبية آدم في السماء السابعة على اعتباره أبا البشرية، وربما كان ذلك عبثا من قبل النساخ أو الرواة لأن رحلة الرسول لا تدخل في معيارها الزمن التاريخي بقدر ما تدخل فيه الزمن الروحي. ووضع كل نبي في سماء دون سماء له دلالة رمزية تتصل بالمراتب الفلكية لكل سماء، لذا جاء إبراهيم في السماء السابعة لا آدم لكون إبراهيم أبا التوحيد والمبشر بالإسلام دين الخضوع لله العلي القدير، وجاء بعده الأنبياء هبوطاً أو صعوداً دون الحفاظ على مبدأ التسلسل التاريخي الزمني بل إنسجاماً مع مكانة هذا النبي أو ذاك في التقويم الروحي لتاريخ الإنسانية. ووضع آدم في السماء الأولى كما في كثير من الروايات أكثر إنسجاماً مع حقائق هذا التقويم، فآدم لم يكن نبياً، بالإضافة إلى معصيته وسقوطه من الجنة، لذا كان مقامه في العروج والسمو أقرب إلى الأرض منه إلى العرش أو سدرة المنتهى. ثم يأتي موسى بعد إبراهيم ثم هارون ثم إدريس ثم يوسف ثم عيسى ويحيى فآدم.

المهم أن الرسول في عروجه إلى الملأ الأعلى مر على كل هؤلاء الأنبياء في أفلاكهم المخصصة لهم متجاوزاً إياها إلى أعلى فلك في العلى الا وهو فلك

العرش، مخاطباً العزة الإلهية، وتزكي الرواية الشعبية للمعراج هذا، فالرسول «صلعم» صلى ركعتين إماماً في كل سماء، وصلى من ورائه نبي هذه السماء، في هذا ما فيه من إشارة واضحة إلى تفوق الرسول العربي وتفوق رسالته التي كانت خاتمة الرسالات والجامعة للزبدة من فضائلها ومزاياها.

ومن الصعب علينا أن نفترض أن الرسل وضعوا في السموات التي وضعوا فيها أو في أفلاكها مصادفة واعتباطاً.

كما أنه من الصعب علينا أن نعتقد أن الأفلاك كانت مجردة من المعاني الرمزية التي انطوت عليها نصوص الروايات الأصلية. فمثل هذه المعاني لا تتضح لنا ما لم نضع الأثر الأدبي، والمعراج هنا هو هذا الأثر في سياقه الحضاري، وهذا يتطلب منا أن نرده لا إلى العصر الذي كتب أو روي فيه بل أن نهتدي بوضوح إلى نسبته إلى راويه أو واضعه والوسط الذي ينتمي إليه، فقد يتبين لنا أن الجزئيات والتفاصيل والإشارات إلى الأنبياء والملائكة لا تكتمل أهميتها وتفك مغاليقها وتتفتح دلالاتها الرمزية إلا إذا وضع الأثر المكتوب في هذا الإطار، إطار الفرد والوسط والزمن والحضارة، أو ما أسميناه بالسياق الحضاري.

وهل يمكننا تذوق مسرحية شللي «بروميثيوس طليقا» بمعزل عن خلفيات الأسطورة اليونانية ومعانيها، ثم هل يمكننا أن نقبض على معاني سيزيف كامو منفصلاً عن أصوله ومضموناته الإغريقية؟ طبعاً كلا... وإذا كان ذلك كذلك، فكيف يمكننا أن نتذوق ونستوعب أدب المعراج إذا جهلنا مضمون الإشارات التي تمتلىء بها قصصه ونصوصه ومصاحبات الرموز التي نصادفها في هذه القصة الخالده؟.

وعلى سبيل المثال ماذا يعرف القارىء العادي بل القارىء المثقف أو المتنور عن إدريس هذا النبي الذي يشكل فلك السماء الرابعة؟ هل يكفي القول إنه نبي من أنبياء الله! طبعاً لا.

فإدريس بالإضافة إلى هذا المركز الديني العام هو نبي المعارف والعلوم في التقاليد الإسلامية، وهو أقدم الأنبياء، وقد عزا إليه ابن خلدون وآخرون اختراع نظام الكتابة وعلمي الفلك والتنجيم وفن الخياطة، وهو عندهم هرمس.

وهرمس هذا في الميثولوجيا اليونانية والرومانية هو إله الفنون والعلوم. إن كثيراً من الآلهة الوثنية لم تبق آلهة في ديانات التوحيد - بل أصبحت إما ملائكة أو أنبياء - إنسجاماً مع عقيدة وحدانية الخالق - لها حد معلوم، تنزه الخالق عما يشركون. وهرمس هذا هو أخنوخ أو «أنوخ» في التوراة الذي هو إدريس القرآن الكريم[٥]. ويوسف الحسن له أصول تضرب جذورها في تربة الأساطير القديمة ويضع ابن عربي [٦] يوسف في السماء الثالثة وهي «سماء الشهادة» «سماء الجمال ومعدن الجلال»، يدخل العارج على صاحبها يوسف وهو «نكاح عقد عرس شهد» على «سيدة البنات ومنيرة الظلمات، التي سحرت بابل ورمتهم بنابل».

وقال:

ومن تكن الزهراء عرسا له فقد تتوج بالجوزاء وانتعل الشعرى
أيا زهرة الروض المسك عرفه وهل زهرة أخرى تضاهي سنا الزهرا

ويوسف على لسان عرسه «هو أمين الأمناء» وحمال البناء وبعل الزهراء أبصرته اللواهيت فحرقته النواسيت. والزهرة [٧] التي أشار إليها ابن عربي بالزهراء هي من الكواكب السيارة في علم الفلك عند العرب وبعدها المعدل عن الشمس ١٠٨ مليون كم وهي شديدة اللمعان تكون تارة نجمة الصبح وطوراً نجمة المساء، أضف إلى ذلك انها كانت معبودة بعض العرب المجاورين للشام والعراق ويسمونها «العزى» وعند الأقدمين هي الهة الجمال وهي ثالثة الآلهة التي أشار إليها القرآن الكريم (أفرأيتم اللات والعزّى. ومنواة الثالثة الأخرى) [٨].

وأما «اللات» فهي على صورة الإنسان ومناة التي يدل جذرها اللغوي على الموت وهي في شكل نصب من حجر أبيض أما العزّى فتتصل بطقوس الخصب إذ هي على شكل شجرة وهي بديل لعشتروت الفينيقيين وعشتار البابليين وغيرها من الهجرات التي تبعتهم من قلب الجزيرة العربية.

والأسماء العربية الصريحة لهذه الآلهة تدل على أصولها السامية والعربية ويمكن القول إنها كانت آلهة مشتركة لهذه الهجرات جميعاً التي تطورت لغاتها لتبدل بيئاتها وتمازجاتها الحضارية ولكن وظائف آلهتها الأساسية بقيت كما هي رغم تبدل الألفاظ والأسماء الدالة عليها.

وبالقياس على هذا فإن يوسف في التوراة يذكرنا بتموز وأدونيس في

الأساطير الوثنية القديمة لاقترانه بالجمال والشباب والحب والخصب في معادلات ومواصفات حضارية متنوعة.

لقد جنّب مصر المجاعة سبع سنوات وهو في التحليل الأخير يجسد الخير ضد قوى الشر والغيرة المتمثلة في أخوته الذين تآمروا عليه وألقوه في غياهب البئر «كما مزق جسد تموز وألقي في باطن الأرض». في طريقهم إلى مصر.

وجاءت المصادر الإسلامية من بعد فأعادت بناء القصة بما يتوافق مع منظورها ومفاهيمها الأساسية.

ومهما يكن فإن يوسف عند ابن عربي، هو بعل الزهراء التي هي بديل عشتار وهذا دليل واضح على أن القصص الاسلامي في شكليه الصوفي والفولكلوري قد استوعب كثيراً من عناصر الأساطير السامية العربية القديمة. بقي معناها ودلالاتها وطورت صيغها وأشكالها كما اختلفت أسماؤها لتوافق معتقدات التوحيد ومستلزماتها.

وما لنا نذهب بعيداً في مجالات الاستدلال والاجتهاد معتمدين على إشارات متفرقة هنا وهناك في بطون المصادر الإسلامية وبين أيدينا قضية كاملة تتوفر بشكلها الكامل في المصادر السومرية البابلية والتوراة والقرآن الكريم وهي قصة الطوفان.

وأقدم مصدر لهذه القصة هو ملحمة جلقامش الذي يرحل من أور بحثا عن الحقيقة وسر الحياة ومن الشخصيات التي يلتقي بها «أوبتانيشتيم» نوح صاحب الطوفان والسفينة الذي يساعد جلقامش في العالم السفلي على معرفة السر، ورواية جلقامش للطوفان تكاد تطابقها رواية التوراة مع اختلاف الدلالات والنشأة. ثم يأتي الوحي القرآني فيشكل قصة الطوفان في أكثر من سورة بما يتوافق مع الرسالة الإسلامية وهديها الموحد. فالإسلام يجبُّ ما قبله من جهة التوحيد قبالة تعدد الآلهة أما من حيث التراث فقد كان الإسلام وريثاً لكثير من الحضارات السامية إن عن طريق المشافهة التي انتهت إلى قريش العرب وغيرها من القبائل أو عبر المصادر النصرانية والعبرانية المنزلة في شكل كتب سماوية.

وإذا كنا نعرف عن الأخيرة الشيء الكثير ذلك لأن البحث والكتابة فيهما لأسباب كثيرة منذ نشوء الإسلام لم يتوقفا فإن المصادر التي تتصل بما قبل الديانات التوحيدية ظلت رهن الإهمال والنسيان كما عتم عليها لأنها تمثل العصور الجاهلية لا بالنسبة للإسلام فحسب بل لما سبقه من أديان التوحيد.

ابن عربي
والتقويم الصوفي

يستخدم ابن عربي نظرية العناصر الأربعة لينقل إلينا آراءه في التحولات الروحية ويقرن التراث الديني بالتقويم الفلكي معاً ليعبر لنا عن معالم تقويم صوفي متميز لصعود الروح إلى البارىء أو تجليه لها في مراتب سماوية معلومة. فالنفس في تطهرها وعروجها من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى تصعد سلم العناصر من التراب إلى الماء ثم الهواء فالأثير وتتحول من اللطيف إلى الألطف في سلم متصاعدة حتى تتحول إلى نور الذات الأعظم.

والفلك البابلي ينتقل من ملأ الزمن إلى ملأ الروح ليعبر عن نظام مركب يقترن فيه تراث الأديان التوحيدية بالأفلاك السماوية كمراتب مخصوصة لتكشف أنوار الحق وسطوعها في النفس.

ففلك القمر هو فلك آدم.
وفلك عطارد هو فلك عيسى.
وفلك الزهرة هو فلك يوسف.
وفلك الشمس هو فلك إدريس.
وفلك المريخ هو فلك هارون.
وفلك المشتري هو فلك موسى.
وفلك كيوان أو زحل هو فلك إبراهيم.
ثم فلك البروج فالمجموعات الكوكبية فالكرسي فالعرش الذي هو سقف الجنة.

وإذا حذفنا من هذه البنية أسماء الأنبياء ورموزهم لوجدنا أنها هي البنية نفسها التي اتبعها دانتي الأجيري في صعوده إلى الفردوس.

يحل آدم في السماء السابعة كما في المخطوطة الأندلسية والروايات الفولكلورية مراعاة للمنظور التاريخي الزمني إلا أن ابن عربي يسقط من حسابه هذا المنظور ويحل محله منظوراً روحياً فيعيد تركيب صورة الأشياء والعالم بما يتوافق مع بصيرته ورؤياه.

ولعل ابن عربي كان من أكثر المتصوفين الذين تحسسوا أهمية مكانة الأنبياء بالنسبة إلى الأفلاك فرتبهم ترتيباً ينسجم مع مذهبه في التصوف وجعلهم كما جعل أفلاكهم رموزاً لتحولات وتجليات يستكملها الصاعد في معراجه قبل الوصول إلى سدرة المنتهى التي تنتهي عندها أعمال العباد والمثول بين يدي نور الحضرة الإلّهية.

فسماء آدم تشير إلى الأجسام، وسماء عيسى تشير إلى الروح والكلمة. وسماء يوسف إلى الجمال والشهادة وهو بعل الزهراء ثم سماء إدريس الذي يتربع في فلك الشمس ويؤمن توازن ما فوقه وما تحته من الأفلاك ثم سماء هارون فلك القوة والحزم ثم سماء موسى فلك الشريعة والكلمة ثم سماء إبراهيم أبي الأديان جميعاً.

فآدم يرمز إلى استخلاف الله الإنسان على الأرض، وعيسى كلمة الله، ويوسف جماله وحكمته، وإدريس قوته وعلمه وهارون حكمه، وموسى قانونه وشريعته وإبراهيم مقاصده وغايته الإلّهية.

وصعود العارج في هذه الأفلاك يعني حصوله على معانيها واستيعابه لروح كل منها فهي تمثل مراحل تاريخ تطور الروح في التقويم الصوفي للإنسانية كما رسمه ابن عربي في كتابه (الإسراء إلى مقام الاسرى).

فالأنبياء في أفلاكهم على اعتبار أفقي إنما يمثلون مراحل تاريخ الروح كل واحد منهم بمفرده، والعروج إليهم وتجاوزهم صعوداً إلى الأفلاك إنما يعني الحصول على دينامية الوحي وسريانه في الإنسانية وتاريخها جميعاً. الله واحد وجوهر الأديان واحد والإنسانية واحدة، ولذا فالوحي واحد ولو تمظهر في مراحل تاريخية متعددة، وتصور في صورة أنبياء مختلفين، فالعارج الصاعد يدرك ذلك

ويذوقه بالمعاناة والمجاهدة على الطريق، فالإنسان والكون وتاريخ الروح المتعدد المظاهر كلها تتوحد بوحدة الشهود مكاشفة وذوقاً. الحق واحد والخلق متعدد، ولما كانت الوحدة أصل الكثرة، فلا موجود إلا هو، ويقين هذا وإدراكه هو ما يسميه ابن عربي بوحدة الوجود. ويصل العارج إلى وحـدة الشهود بـالذوق والكشف والعرفان فهي إذن تشخيص على حين أن وحدة الوجود تجريد.

لغة المعادن والأحجار الكريمة.

هناك أمثلة أخرى تلقي مزيداً من الضوء على مسألة التعدد والوحدة لأدب المعراج ونماذجه الكثيرة، كما تلقي ضوءاً على الكيفية التي تم بهـا استيعاب عناصر الحضارات والديانات الأخرى ثم هضمها وتمثلها ودخولها في صلب البناء الإسلامي الفكري والروحي. والواقع أن هذه الخاصة ليست وقفاً على الإسلام بل سبقته إلى ذلك النصرانية في هضمها للتراث الوثني اليوناني واليهودية في استيعابها لتراث الشرق القديم. وتسهل علينا هذه الأمثلة أو تمهد الطريق أمام فهم معقول لمشكلة الرموز ومصاحباتها في المعراج هذا الأثر القيم فكثيراً ما تبدو هذه الرموز للقارىء المعاصر الذي ضعفت صلاته بالثقافة الإسلامية وتراثها الفني وأبعاده لعباً أوترصيعاً لفظياً هو في غنى عنه، ولا يدري أن العلة في القارىء لا المقروء.

تسمي كثير من نصوص المعراج السماوات بأسماء وتذكر أنها صنعت من معادن وجواهر تستغلق رموزها على القارىء لأن بعض الرواة والنساخ وضعوا بعضها في مواضع بعضها الآخر أو شوهوها دونما علم أو لأن الروابط بيننا وبين التراث أصبحت واهية إن لم نقل مفقودة.

وهذا جدول للقارىء بأسماء السموات والمعادن أو الجواهر التي صيغت منها كما وردت في كتاب المعراج للقشيري والنسخة المنسوبة الى ابن عباس.

القشيري:

السماء الأولى واسمها الرقيع، وهي مؤلفة من طبقات متعددة.
السماء الثانية واسمها طيطا، وهي من الرصاص.

السماء الثالثة واسمها زيلون، وهي من الفضة.
السماء الرابعة واسمها ماعون، وهي من الذهب الأصفر.
السماء الخامسة واسمها شيحين، وهي من الياقوت.
السماء السادسة واسمها عزريون، وهي من الزمرد الأخضر.
السماء السابعة واسمها مرشمعو، وهي من النور[٩].

أقل ما يقال في هذه الأسماء التي وردت في كتاب القشيري إنها أسماء غير عربية فيها خلا الرقيع والماعون إسمي السماء الأولى والرابعة، حتى صيغها تبدو غريبة على الصيغ العربية، وربما كانت سريانية أو أرامية الأصول سامية قديمة أو عبرانية كما هي الحال في أسماء كثير من الملائكة في القصص الإسلامي. يؤيد هذا الرأي أن هذه الأسماء التي وردت عند القشيري وبعض روايات ابن عباس لم تذكرها المصادر الأولى لا الأحاديث ولا السيرة أو البخاري ومسلم.

يتجلى لنا ذلك أيضاً في أسماء الملائكة الحارسة لكل سماء، فحارس السماء الأولى هو إسماعيل، والثانية رفائيل، والثالثة مومن ياليل، والرابعة كوكب ياليل، والخامسة شطغط ياليل، السادسة روعن ياليل والسابعة نور ياليل.

إن لفظة إيل التي حافظت على شكلها في كثير من أسماء الملائكة في الإسلام كجبرائيل وعزرائيل وإسماعيل ورفائيل تعني الله بالعبرانية، وإنها حرفت نسخاً إلى ليل في بعض أسماء الملائكة، واحتفظت بأصلها كما في حارس السماء الأولى والثانية وإسماعيل ورفائيل.

ولنقارن جدول أسماء السماوات والمعادن التي صيغت منها بجدول آخر نستخرجه من الرواية الشعبية المنسوبة إلى ابن عباس وهو يجري كما يلي:

السماء الأولى، وهي من دخان، واسمها الرفيعة.
والسماء الثانية، وهي من الحديد، واسمها الماعون.
والسماء الثالثة، وهي من الرصاص، واسمها المزينة.
والسماء الرابعة، وهي من الفضة، واسمها الظاهرة.
والسماء الخامسة، وهي من الذهب، واسمها المنيرة.
والسماء السادسة، وهي من الياقوت الأخضر، واسمها الخالصة.
والسماء السابعة، وهي من اللؤلؤ الأبيض، واسمها مرشمعو.

لاحظ تدرج إرتقاء المعادن من الخسيس إلى الكريم:

دخان، حديد، رصاص، فضة ذهب، ياقوت أخضر، لؤلؤ أبيض. وترمز الزمردة الخضراء إلى النفس الكلية في اصطلاح الصوفية كما ترمز الدرة البيضاء إلى العقل الأول(١٠).

فانظر كيف يقترن الحجر الكريم واللون معاً بدلالات رمزية مخصوصة.

ولاحظ أيضاً أن الألوان لا تخلو من الرمز من حيث ارتباطها بالظلمة والضوء الساطع، دخان، لؤلؤ أو نور.

وإذا صح ان الألوان تشير إلى إشراقات الصعود من مرتبة إلى مرتبة ومن فلك إلى فلك، فالعارج في صعوده يتدرج في رحلته من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى، وتتدرج معه المشاعر والأحاسيس بشكل إشراقي مسافة العروج بين التراب والأثير بين الدخان واللؤلؤ الأبيض أو النور. يؤيد اعتقادنا هذا أن الإشراقيين اهتموا اهتماماً بارزاً في قصة المعراج،فللسهروردي (١١٩١ ـ ١١٥٣ م) كتاب في المعراج. وللغزالي في «مشكاة الأنوار» إستعارات من المعراج في المراتب التي يتدرج بها العبد في استسلام قلبه للنور الذي يشع من الباري عزّ وجلّ.

خاتمة

جرت حادثة المعراج تاريخياً قبل الهجرة بعام أو عامين وسادات قريش يمعنون بالأذى والاضطهاد لاتباع الدين الجديد مما اضطر الرسول إلى تنظيم فوجين من المهاجرين. واحد إلى الحبشة، والآخر إلى المدينة، وفكر في الالتجاء قبل الهجرة إلى المدينة بالاستنجاد بأهل الطائف علهم ينصرون الدين الجديد ويعينونه على اضطهاد القريشيين في مكة، ولكنهم خذلوا الرسول ورجموه بالحجارة، وليس معه غير زيد غلامه، ففي هذه المرحلة التي تتسم بكل ما تتسم به المأساة من توتر في صراع الأضداد تمت حادثة المعراج، وهكذا نرى أنه قد أحاط بالرسول قبل العروج كل ما يحيط بأبطال الملاحم من بلاء ومحنة.

وإذا كانت رحلة جلقامش تهدف إلى الوصول إلى سر الحياة والخلود والتثبت من معنى وأهمية الإنسان في وجود هش فإن معراج النبي في ظروف

البلاء والمحنة التي تم فيها أدى إلى تثبت الرسول من رسالته وتمكينه في نبوته بأن فضل على الأنبياء والعالمين جميعاً وتجاوزهم مكانة ومرتبة علماً ومعرفة وامتلأ صدره باليقين، واكتسب علمي الظاهر والباطن، الشريعة والحقيقة. ولم يتكلم مع الحق فحسب بل فاز بالرؤيا وحصل على مقام الوصول والمشاهدة جرياً على عقائد الصوفية. ومع أن المعراج إتخذ أساليب الرواية والقص إلا أنه يتسم في أشكاله الفولكلورية والتصوفية بكل ما تتسم به الملاحم الدينية كالكوميديا الإلهية لدانتي والفردوس المفقود لملتن، وقد ألمعنا فيما سبق إلى اعتقادنا أن المعراج لكونه يطابق أدب الرحلات فهو على الأغلب وريث الملاحم القديمة كجلقامش وغيرها. وكون ملحمة المعراج كتبت نثراً لا يضعف من هذا الاجتهاد لأن هذا النثر كثيراً ما التزم السجع كما هو الحال في معراج ابن عربي «الإسراء إلى مقام الاسرى» والرواية المنسوبة إلى ابن عباس وما شابهها ثم إن العطار لجأ إلى الشعر في «منطق الطير» وكتابه «معراج نامه» الذي يبلغ سبعة آلاف بيت مزدوج بالفارسية وقبله سنائي كتب «معراج سير العباد إلى المعاد» شعراً أيضاً.

هوامش

الباب الثالث

١ ـ قرآن، سورة ـ ٥٣، آية ٩.
٢ ـ القشيري، كتاب . . . ص ١١٤.
٣ ـ (الفتوحات) جـ ٣، ص ٨٧ ـ ٨٥، انظر أيضاً ص ٨٩.
أيضاً جـ ٤، ترميز ابن عربي لسدرة المنتهى، ص ٣٢٥.
٤ ـ أ ـ انظر (معراج النبي صلعم) ابن عباس (دمشق لا تاريخ) ص ٥ ـ ٣٢.
ب ـ انظر الحاشية رقم ٣.
جـ ـ انظر ابن كثير (تفسير القرآن العظيم جـ ٤) (بيروت ١٩٦٦)، ص ٢٣٩ ـ ٢٨٤.
د ـ انظر ابن عربي (أحكام القرآن) جـ ٣، ص ١١٨١ ـ ١١٨٣.
هـ ـ انظر الطوسي (تفسير الطوسي) (٤٦٠ ـ ٣٨٥هـ) جـ ٩ (النجف ١٩٧٣)، ص ٧٧.
و ـ انظر ابن هشام، (السيرة النبوية) (مصر ١٩٣٦)، ص ٤٥.
ز ـ انظر السيوطي (الخصائص الكبرى) جـ ١، (القاهرة ١٩٥١)، ص ٣٧٧ ـ ٣٤٥.
٥ ـ انظر ابن خلدون، (تاريخ ابن خلدون) الطبعة الأولى (بيروت ١٩٦١، ص ٧٣٩).
انظر الطبري (تاريخ الرسل والملوك) (القاهرة ١٩٦٠، ص ١٧٢ ـ ١٧٣).
انظر ابن سعد (الطبقات الكبرى) (بيروت ١٩٦٠، ص ٤٠).
انظر ابن كثير (البداية والنهاية) (القاهرة ١٣٤٨هـ، ص ٩٩ ـ ١٠٠).
انظر ابن عربي (فصوص الحكم) تفسير عبد الرزاق القاشاني (مصر ١٣٢١هـ، ص ٦٠ ـ ٦٣).
انظر رسائل ابن عربي (كتاب الأسفار) (١٩٤٨، ص ٣٨ ـ ٣٢).
٦ ـ ابن عربي (الإسراء). . . ص ٢١ ـ ١٨.
٧ ـ المنجد، ص ٣٠٨.
٨ ـ قرآن، سورة ٥٣، آية: ١٩ ـ ٢٠.
٩ ـ القشيري، كتاب . . . ص ٤٣ ـ ٥٤.
١٠ ـ ابن عربي، الرسائل، (اصطلاح الصوفية)، ص ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦.

الباب الرابع

النور والحجاب بين التصوف والفولكلور

النور والحجاب
بين التصوف والفولكلور

I ـ فاتحة

في دراستنا السابقة للرمز والرؤيا والتراث والتقويم الصوفي في المعراج رأينا أن الأدب الصوفي قد أعطى لهذه القصة أبعاداً فكرية وإنسانية وأخرجها من سياق الأحاديث والأسانيد والتواريخ فانصبت اهتمامات أهل التصوف بالدرجة الأولى على قيمة القصة الرمزية. أضف إلى هذا أنهم لم يكتفوا بالتأويل الرمزي للمعراج بل أضافوا عليه عناصر جديدة تعبر لنا عن جوانب من أفكارهم ومعتقداتهم.

إن نظرة متأملة يلقيها الدارس على المعاني التي ترمز إليها الألوان والأنوار والحجب، والطرق التعبيرية التي استخدمت فيها رموزاً واستعارات وتشابيه، كفيلة بأن تكشف لنا نفوذ وسيطرة الرمز وتأويل الصوفيين على هذه القصة لا من حيث الإطار والتركيب فحسب كما رأينا في دراستنا السابقة بل من حيث الجزئيات والتفاصيل والمغزى العام للقصة التي تتداخل في بناء فكري شمولي متميز تخدم فيه الأجزاء المتنافرة نظاماً روحياً كلياً منسجماً.

II ـ الله والحجاب بين أهل الرؤيا والنقل.

تصور أهل التصوف أن بين الله وخلقه حجباً متعددة. واختصار المسافة بين الخالق والمخلوق والحصول على السعادة إنما يحصل بالخروج من التجزؤ إلى الوحدة والانسجام ولاستكمال ذلك لا بد من إزالة هذه الحجب التي تقف بين الخالق وعباده والتوحد به.

إن الأنقى والأتقى من عباد الله والأطهر بصراً وبصيرة يتجاوز الحجب إما بنعمة من الله أو بالمجاهدة والممارسة الصوفية إلى دوائر الكشف والمشاهدة تسبغ أنوارها كما أسبغت على الرسول العربي الكريم عندما تجاوز سدرة المنتهى في عروجه إلى الحق وانخطافه إلى فلك النور الأعظم في قصة المعراج المعروفة.

وقد خلت الأحاديث الصحيحة من فكرة الحجب هذه واستنكرها ثقات المحدثين الأوائل وغيرهم من المتأخرين[1].

مهما يكن، فإننا نجد في القرآن الكريم آيات ترى الحجاب مجازاً بين الله والإنسان كما في قوله تعالى «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب»[2] هذا وقد اختلف الفقهاء وعلماء الحديث وأهل التصوف في معنى هذه الآية وتأويلها كما اختلفوا حول ظاهرة الحجب وما يتصل بها من معانٍ ورموز فاستنكر الفقهاء وأهل الحديث وجود الحجب وتمسك بها أهل التصوف واستخدموها لشرح عقائدهم في تحديد علاقة الإنسان بالله وفكرتهم في الوصول إلى وجه الحق وعروجهم إليه على الطريق الصوفي.

إن فكرة الحجب التي تفصل الخالق عن المخلوق بدلالاتها وأبعادها الرمزية هي من المبتكرات الصوفية ومؤثراتها في الأدب الإسلامي. وقد برزت أكثر ما برزت في قصص المعراج وظلت واضحة إلى يومنا هذا في النسخ المتداولة بين أيدي الناس بأشكالها الفولكلورية والشعبية رغم انقطاع الوشائج بينها وبين أصولها الصوفية[3].

وقد تبدو فكرة الحجب هذه لأول وهلة مبالغة من المبالغات اللفظية إن هي عزلت عن سياقها الحضاري بشكل عام أو اجتزئت عن الموقف الصوفي بشكل خاص إذ ما معنى أن يقف بين الله والإنسان سبعون حجاباً أو سبعون ألفاً وفي عقيدة المؤمن أن الله لا يحده حد ولا يحتجب بحجاب؟!.

الواقع أننا نجد جواباً على هذا السؤال في شرح مسلم للآية الكريمة الآنفة الذكر في صحيحه فالحجاب كما أشار مسلم يتناول رؤيا المخلوق لا صورة الخالق وفي هذا التفسير البارع لهذه الآية يكمن مفتاح فهم الموقف الصوفي ورمزيته[4]. فالتحجب إعتبره المتصوفة إنفصالاً للجزء من الكل وحاجزاً يعزل الإنسان عن الله يتمكن من رؤيا العبد بينما نُزِّهت عنه صورة المعبود.

وتتوضح لنا فكرة الحجب وتأخذ مكانها الطبيعي إذا ما وضعت في إطار الفكر الصوفي ونظامه الكلي المنسجم. ففي سياق الموقف الصوفي وحده وتأويله النافذ المتعمق يمكننا أن نفهم فكرة الحجاب والنور، المخلوق والخالق فهما حقيقياً ينفذ من الشريعة إلى الحقيقة ويتجاوز أهل الظاهر ـ الحديث والفقه ـ إلى أهل الباطن ويتخطى قشرة العالم إلى روحه ونبضه.

وعلى هذا فنحن إذن أمام منهجين اثنين وبالتالي أمام عقليتين ومزاجين:

العقلية الأولى هي عقلية أصحاب النقل الذين يتمسكون بالحقيقة التاريخية المنقولة هل ورد عن السلف أو لم يرد؟ أروي عن الرسول ومن روى وصحة الرواية أو عدمها على أصول ومناهج في المعرفة بينها لنا علماء الحديث وما يمكن أن يستنبط من ذلك قواعد وقوانين من القرآن والسنة أو بالقياس والإجماع حسب أصول فقهية محددة واضحة.

والعقلية الثانية هي عقلية أصحاب التصوف الذين تهمهم الحقائق الروحية والنفاذ إلى سر العالم وباطنه. فالحقيقة التاريخية عندهم لا تؤخذ كما هي وعلى علاتها بل تؤول وتفسر وفقاً لنظام كلي يحاول أن يفهم الكون والكائن والمكون والعلاقات القائمة بينهم جميعاً على طريق العقائد الصوفية.

فالحياة باطن وظاهر، حقيقة وشريعة، نقل وكشف. والباطن والحقيقة والكشف تأتي أولاً عند أهل التصوف بينما الشريعة والظاهر والنقل تحتل الصدارة عند أصحاب الحديث ومن على شاكلتهم.

إن كلا المنهجين وكلتا العقليتين ينطوي على نصيب وافر من الحق إذا أخذنا بعين الاعتبار منظور كل منهما وتكوينه واختصاصه. ولكن الخطأ الذي ارتكبه نفر من أصحاب الحديث هو أنهم في جدلهم لفكرة الحجاب مثلاً أخذوا مأخذ الحقيقة ما حقه أن يؤخذ مأخذ المجاز والرمز فوقعوا في تناقضات واضحة.

حقاً إن أهل الحديث يحرصون على وحدانية الله وتنزيهه ورفع هذه الوحدانية وتجريدها عن الإنسان والعالم وفصلها فصلاً حرفياً لا لقاء لهما فيه أبداً. بينما يحرصُ أهلُ التصوف على هذه الوحدانية مجسدة تسري في الخليقة والعالم روحاً موحدة تنتظم عوالم الصفات والأفعال وتعين الإنسان والكون كصور من التجليات الإلهّية المتعددة التي صدرت عن الواحد بالفيض روحانياً كان أو نورانياً أو بالإرادة والخلق.

III ـ النور وظاهرة الحجب عند القشيري وإرهاصات الإشراق.

يورد لنا القشيري (١٠٤٧م)، وهو من كبار أهل التصوف ومصنفيهم في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، نصوصاً كثيرة تنطوي على ظاهرة الحجب والنور كأمرين متلازمين في كتاب المعراج(٥).

وأول ما يطالعنا من هذه النصوص كثرتها وتعددها ولكن هذه الكثرة والتعدد لا تحجبان الفكرة الرئيسية التي تدور حول مفهوم واضح وهو أن الله نور العالم يصل إليه العارج باختراق الحجب أياً كان نوعها.

وإذا كان الوصف والسرد والإغراب قد طغت على هذه النصوص فإن قوة الرمز لم تخنها للدلالة على الفكرة الرئيسية الآنفة الذكر.

وكذلك فإن هذه النصوص بخروجها عن التحديد الفلسفي إلى التشكيل الأدبي الجمالي ذي الدلالات الصوفية لا يضعفها بل يسبغ عليها قيمة جمالية ولذة فنية.

وإذا كانت الجزئيات والتفاصيل في أوصاف الحجب وأنواعها قد استغرقت مساحة واسعة نسبياً فقد تم ذلك كله لخدمة الفكرة الرئيسية من تشديد العزيمة على إزالة هذه الحجب على كثرتها والوصول إلى دائرة النور الأعظم والتوحد بنعمة المشاهدة.

طبعاً يختار القشيري هذه النصوص من تراث الحديث ولكنه يحتفل بالنصوص أكثر مما يحتفل بالأسانيد مع حرصه على إيرادها.

ومن أبرز النصوص التي يوردها لنا القشيري نص يصف لنا أول ما يصف سمك الحجب وأنواعها من العناصر وتعددها والمسافات التي تفصل بينها وفي عروج الرسول إلى الملأ الأعلى يقف جبريل عند سدرة المنتهى ولا يتجاوزها أما الرسول فيتقدم ليخترق الحجب كلها نحو العزة الإلهية بلا واسطة ويتخطى نحو سبعين حجاباً ثم يمتطي الرفرف إلى فلك العرش فيفرخ روعه في دوائر النور وتهدأ نفسه وتتضح له الرؤيا(٦).

إن أغلب النصوص التي يوردها القشيري لا تخرج عن هذا الإطار إلا بالتفصيل ولكنها تتفق جميعاً بكونها تحدد أن الرسول بعد اختراق الحجب رأى

نوراً تعجز عن وصفه الكلمة، يكاد سنا ضوئه يخطف الأبصار، وأن الرؤيا مع جواز حصولها بالعين ولكنها رؤيا القلب إنسجاماً مع معتقدات الباطن الصوفية وخلافاً لرؤيا الحس أو الرؤيا المزدوجة رؤيا البصر والبصيرة التي استقر عليها ابن عباس ونقلها عنه ورواها أهل الحديث(٧).

وتنطوي إختيارات النصوص للقشيري على نزعة إشراقية مبكرة إذ يتمركز أغلبها على التشديد على النقيضين الحجاب والنور في مقابلات واضحة.

ولاهتمام القشيري بالجانب الرمزي من النصوص والأحاديث فإنه يصرف النظر عن مشاكل الإسناد فيها بل هو يروي ما فيها من زيادات أو إضافات كالنص الذي رواه عن أبي حذيفة بن بشر القرشي البخاري بإسناد ضعيف ومتن فيه زيادات رواها القشيري لأنه لا وجه للاعتراض فيها في تقديره.

وإذا كان القشيري ذا نزعة إشراقية في اختياراته فهو لا يقل نزوعاً إلى الإشراق في تفكيره فيكون شأنه في هذا المقام شأن ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م). بمعنى أنه قد سبق الإشراقيين ومهد لهم ونذكر منهم على التخصيص الغزالي (١١١١ م) والسهروردي القتيل (١١٥٣ - ١١٩١م).

يعتقد الإشراقيون أن الله نور ولهذا النور مراتب ودوائر وأفلاك تقف بين الإنسان والله معارج متدرجة غمرها النور الإلهي بالفيوضات في حركة نازلة من أعلى إلى أدنى، من الواحد إلى المتعدد، من الله إلى الإنسان والعالم.

وجاء أهل التصوف ليردوا اتجاه هذه الحركة ويسيروها من أدنى إلى أعلى ليردوا الفيوضات إلى مصدرها، ليرجع المتعدد إلى الواحد ويعود الإنسان إلى الله وبذلك ينتفي الإنقسام والتجزئة بالوحدة ويحصل على السعادة.

وما عبر عنه الإشراقيون بالدوائر والأفلاك والمراتب لفيوضات النور الإلهي أشار إليه أهل التصوف بالحجب مجازاً ورمزاً إذ لا سعادة للإنسان عندهم إلا بالعودة إلى الله واختراق الحجب للوصول إلى نبعه ومصدره والتوحد بمشاهدة النور الأعظم.

فالإنسان الصوفي ينجذب إلى النور الذي عنه صدر ولكن تقف بينه وبين هذا النور موانع وحواجز وحجب منها حجاب البشرية وحجاب العالم ونزع هذه

الحجب لا يتم إلا بنعمة من الله أو مجاهدة وإرادة وهذا هو جوهر معنى السلوك عند أهل الطريق.

الإنسان إما أن يكون حجاباً أو نوراً ـ فلكي يخترق العالم إلى الله، والقشرة إلى الثمرة ـ ما عليه إلا أن يكسر صدفه الطينية التي تحجب الجزء عن الكل وينقي الروح من شوائب الأرض في حج صاعد إلى النور من دوائر الملأ الأعلى.

وتتجلى لنا أيضاً نزعة القشيري الإشراقية المبكرة في كتابه اللطائف إذ يحدد لنا أربع مراتب من الأنوار. وتختص كل مرتبة من هذه المراتب بمرحلة أو بأخرى من مراحل السلوك الصوفي التي تتجلى للإنسان السالك على الطريق. وتتدرج هذه المراتب كما يلي:

أولاً: نور المراقبة، مراقبة النفس ومراقبة البارىء.
ثانياً: نور الحضور الإلّهي الذي يتجلى للنفس المتأملة ويؤنسها.
ثالثاً: نور الكشف.
رابعاً: نور المشاهدة.

وتتوج هذه المراحل الأربع مرحلة أخيرة تختص بأنوار التوحيد حيث تتجلى صفات خالق الكون الوحدانية للسالك إذ تعجز الكلمة أو الإشارة التعبير عنها كأنما الرائي والمرئي والرؤيا نور على نور يستكبر إشعاعه على حدود العبارة والصورة.

وترافق كل مرتبة من مراتب النور هذه مرتبة مخصوصة من الإشراق والإدراك والرؤيا في نفس السالك وقلبه تتدرج كما يلي:

أولاً: رؤيا القدرة الإلّهية العاملة التي تتجلى في الخليقة والعالم.
ثانياً: رؤيا النفس والقلب التي تتجلى عن الحضرة الإلّهية.
ثالثاً: رؤيا تجلي الصفات التي تحصل في نور الكشف لوحدانية الخالق.
رابعاً: رؤيا الوصول والمشاهدة التي تتم بالخروج من التجزؤ إلى الوحدة حيث ينقلب ليل السالك نهاراً ساطعاً وتنهتك أمام رؤياه كل الحجب وعلى الأخص حجابا الخليقة والعالم فتتجلى عن الواحد الأحد[٨].

ولم تقف النزعة الإشراقية عند هذه الحدود بل تطورت على يد الغزالي والسهروردي اللذين أرسيا دعائم هذا المذهب وأركانه ورسما له اتجاهاته المتطورة وغاياته. الأول في كتابه «مشكاة الأنوار» إذ اعتقد أن الإشراقات في النفس إنما تحصل متوازية مع مراتب مختلفة من العرفان. والعرفان في المصطلح الصوفي هو المعرفة بالتجربة والذوق. ويجري هذا العرفان على سلم متصاعد من المشاهدات والكشوف والتجليات لحقائق الكون وأسراره وأسرار مبدعه ومكونه هذا النور الأعظم الذي يتسلمه قلب المؤمن بالذوق على مراتب تتدرج معراجاً فصل درجاته الغزالي في «مشكاة الأنوار»(٩).

أما السهروردي فجعل من الإشراق مذهباً كلياً متكاملاً في كتابه «حكمة الإشراق». فالنور الأعظم هو مصدر الوجود والموجودات، يتجلى في الشمس والنار كما يتجلى في الملائكة وأهل الحكمة والإشراق الذين يتخطون الوسائل المنطقية الأرسطية في الوصول إلى المعرفة ويؤكدون على أهمية التأمل والحدس والإشراق. لذلك نرى السهروردي يتجاوز الفارابي وابن سينا وأستاذهما أرسطو إلى النبي إدريس الذي تعتبره تقاليد الحكمة المشرقية رأس المعرفة ونبي العلوم والفنون والحكمة التي تنبع من إضاءات النفس بالحدس والاتصال بواسطة الوحي لا المنطق، بالنور الأعظم.

وتتوضح أهمية الدرجات والمراحل التي يتجلى فيها هذا النور في السموات والأفلاك والنجوم والمخلوقات في كتاب هياكل النور. وكلمة الهياكل هنا إنما تعني نظام المراتب الذي ألمعنا إليه والذي عبر عنه بالحجب في الآداب الصوفية(١٠).

كثيرة هي الحجب التي تحول بين الإنسان ومصدر النور وتمنع أبصارنا من رؤية الحقائق الكونية. والمؤمن الحق هو الذي يخترق قيود الحجب التي تشده إلى الظلمة وينخطف إلى عالم النور إما بالجذب والنعمة التي تخرق مراحل الحجب كلها إلى الحضرة الإلهية أو بالمجاهدة وعبور المراتب مرتبة مرتبة.

وهل الحياة غير هذه الرحلة الدائمة؟ رحلة الفرع إلى الأصل والسفر في دوائر النور صوب النور الأعظم الذي تحول بين أعيننا وبين رؤياه حجب العناصر وحجب الصفات وحجب الأعمال.

ومتى تنسحب هذه الحجب عن رؤياالمؤمن يشع نور الله في قلبه أو يفيض ويمتلىء وجوده بوجود المبدع، النور الحقيقي الذي تلتقي الإنسانية في سطوعه وتتوحد كلًا لا يتجزأ في إشراقه.

وعلى هذا فإن بعض النصوص التي أوردها القشيري وغيره تتشكل فيها الحجب من عناصر الطبيعة. فبين حملة العرش من الملائكة وسكان سدرة المنتهى تنتصب خمسة حجب، حجاب من الضوء وحجاب من النار وحجاب من الثلج وحجاب من الغيم وآخر من الصقيع، فلولا هذه الحجب لالتهمت الملائكة إشعاعات حملة العرش الذين يضيئون السدرة وتنعكس أنوارهم من هناك على السموات الدنيا(١١).

ثم إن هناك ملكاً خاصاً لهذه الحجب يطلق عليه ملك السرادقات أو الروح الذي توكل إليه وظيفة السماح بالدخول إلى دائرة النور الأعظم ووظيفة إسدال الحجب أو كشفها عنه.

IV ـ ابن عربي والتأويل الصوفي للحجب

وقلما نرى نصاً للمعراج بدءاً من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر لا يحتفل بظاهرة الحجب هذه ولكن الأبعاد الفكرية والنفسية والرمزية التي تعطى لهذه الظاهرة تختلف من نص إلى آخر(١٢).

فهي تكتسي أهمية بالغة في تفكير ابن عربي ومؤلفاته لأنها كما رأينا عند القشيري لا ترتبط بالرؤيا فحسب بل تقترن بمرتبة من مراتب المعرفة. والمعادلة الفكرية التي يقدمها لنا ابن عربي تتلخص كما يلي:

إن غياب الله في حياة الإنسان هوالحجاب، ورفع الحجاب هو حضوره في هذه الحياة. والمشاهدة سواء أكانت كشفاً أو رؤيا أو نوراً يشع في حياة المؤمن، ليست ببساطة غير حضور الله في قلبه وهي الحالة التي عبر عنها بوحدة الشهود. وغيابه هو حضور الإنسان هذا الحضور الذي يقوم حجابا بينه وبين المشاهدة والوحدة.

فالوجود واحد وإن تعددت الأشكال والمظاهر.

إن الإنسان والطبيعة والكون كلها تجليات للواحد[١٣].

فالأنا إذا تخطينا التجزؤ هي الهو والهو هو الأنا عندما يحقق الإنسان وترتفع الحجب. ويسهل عندئذٍ فهم مقولة الحلاج[١٤] «أنا الحق». وما في الجبة غير الله ويتوضح لنا معنى البيتين المشهورين:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

يسيطر الانفصام ويستحوذ التجزؤ عندما نعجز عن هتك حجب الأنا عن الهو فنرسف في عبودية الأشكال بلا حرية. والحركة الوحيدة هي كسر هذه العبودية والتحرك نحو النور واختراق المسافة بين الأنا والآخر، بين الأنا والله.

عندما تطغى علينا رؤيا الحس نبقى أسرى العبودية. أما إذا تجاوزنا رؤيا الحس هذه إلى رؤيا القلب والنفس التي تجعلنا ندرك أنه ما من عبودية لغير الله وبمجرد تحررنا من عبودية الأنا وهتك الحجاب وإدراكنا لعبوديتنا لله نخرج منها إلى التوحيد بالمشاهدة والوحدة.

أفتن أهل التصوف منذ البسطامي باستخدام الرؤيا وما يرافقها من عناصر الإضاءة والنور وإشعاع الله على العالم من خلال الإنسان بالحدس والكشف يقطع الإنسان السالك على الطريق المسافة بين ظلال العالم وإشعاع الله وبالرؤيا التي عبر عنها أهل الطريق بوحدة الشهود في دائرة النور الأعظم و هي بمثابة حجر الزاوية من عقائد الصوفية.

وجاءت ظاهرة الحجب لتخدم فكرة وحدة الشهود وترتبط بها فكان النقيضان الحجاب والنور في جدلية صوفية مثالية مدورة. فالإنسان إما أن يكون حجاباً مسدود الرؤيا أو نوراً في حركة دائمة، تتجه إلى الوحدة.

وبينما يشير البسطامي إلى ظاهرة الحجب إشارة عابرة في رؤياه فإن ابن عربي يتوسع في هذه الإشارة ويقرنها بدلالات فكرية وصوفية متميزة[١٥].

أما فريد الدين العطار فيستبدل بفكرة الحجاب الوادي ويجعل من تجاوز الأودية بديلاً لتجاوز الحجب ولكنه في مواضع أخرى من كتابه «منطق الطير» يشير إلى الحجب إشارة عابرة. مهما يكن فرحلة العطار صوب «السيمرغ»[١٦] كرؤيا

البسطامي ومعراج ابن عربي تؤول إلى المشاهدة والوحدة، وإن اختلفوا جميعاً في تصوير هذه الوحدة والمعاني المقترنة بها. ويتميز البسطامي عن زميليه بشطحات رؤياه وحدتها على حين أن العطار يتوهج بشدة التصور وبعد الخيال ويتعمق ابن عربي[١٧] في أبعاد التأويل الصوفي فيشير إلى حجب كثيرة في فلك اللوح المحفوظ من كتابه «الإسراء إلى مقام الاسرى». فالسالك على الطريق الصوفي أو الصاعد على معراجه يواجه في الفلك المذكور حجباً كثيرة قبل الوصول إلى الملأ الأعلى. وابن عربي لا يختص هذه الحجب بنظام أو نسق معين على كثرتها وتعددها بخلاف ما فعل في أول الرحلة من الأندلس إلى بيت المقدس، الأمر الذي سنعنى به بتوسع فيما يلي:

يميز ابن عربي ثلاثة أنواع من الحجب من باب «سفر القلب»[١٨] في معراجه يصفها للسالك في الطريق من الأندلس إلى بيت المقدس فتى روحاني الذات سماوي الصفات يمثل مظهراً من مظاهر الوحي في تصور ابن عربي ورمزيته.

ويعتقد ابن عربي أن قيادة الوحي وحدها كفيلة بتجدد الإنسان والبشرية وبه تتم ولادته الروحية الجديدة التي يبشر بها الشيخ الأكبر في كتبه.

وتشف الحجب التي يتكلم عنها ابن عربي عن نظام فكري صوفي متكامل يتناول الإنسان والله والحقيقة كما يتناول الشريعة والمعرفة تناولاً قادراً بإيجاز وتركيز ورؤيا نافذة.

يعلن بلسان الفتى النوراني أن هناك ثلاث فئات من الحجب تقف بين الانسان والله، وبين الإنسان ونفسه، وبالتالي بين الإنسان والحقائق الكلية للكون.

ويتوازى مع هذه الحجب ثلاثة أنواع من الرؤيا،وثلاثة أنواع من أصحاب المعرفة تتدرج كما يلي:

الفئة الأولى هي فئة أصحاب الحقيقة وهم أهل التصوف الذين يخترقون حجب المادة إلى الروح الكلي، الحجب التي ترمز إلى العالم الفيزيائي عالم الصفات والظواهر وعالم الحواس.

والفئة الثانية هي فئة أصحاب التفريق وهم أهل الفقه والحديث الذين يركزون معرفتهم على الشريعة دون الحقيقة وعلى الظاهر دون الباطن في تحديد علاقة المؤمن بالله والإنسان والعالم.

والفئة الثالثة هي فئة البرزخ الذين يقفون موقفاً وسطاً من الفئتين المذكورتين فلا هم من أصحاب الحقيقة ولا هم من أصحاب الشريعة.

ويعتبر البرزخ بمثابة مطهر لأهله، وربما عنى المؤلف بهم جماعة علم الكلام والفلسفة، فإن هم طهرت أرواحهم يستطيعون أن يتجاوزوا عالم الصفات والظواهر إلى عالم الحقيقة والروح حيث يكمن أصل الشريعة وما خفي من الظاهر.

وهكذا نرى أن ابن عربي يصنف لنا ثلاثة من أصحاب المعرفة الذين يملكون ثلاثة أنواع مقابلة من الرؤيا تخترق أنواعاً مقابلة من الحجب.

والجدير بالذكر أن ابن عربي يستعيد لغة الرمز والأحجار الكريمة وألوانها المتنوعة ليعبر لنا عن نظريته في التأويل الصوفي للحجب وآرائه في معرفة الحق والخلق في هذه المرحلة من تفكيره.

ويأتي في المرتبة الأولى من هذه الحجب حجاب أهل الحقيقة وهو حجاب مكلل بالياقوت الأحمر.

أما حجاب أهل التفريق فهو مكلل بالياقوت الأصفر ويأتي في المرتبة الثانية من سلم القيمة.

أما حجاب الياقوت الأكهب فيشير إلى أهل البرزخ ورؤياهم فالأحمر والأصفروالأكهب ألواناً كانت أم حجباً تشير بالتتابع إلى الذات وأصحابها ثم أهل العبادات والأفعال والصفات الإلهيّة وأهل النظر فيها التي تحول حجبها جميعاً بين البشرية والحقيقة وبينها وبين أصلها ومصدرها.

وعلى هذا فابن عربي يستخدم ظاهرة الحجب من ضمن منظور صوفي يتجاوز تناقضات الحق والخلق. الإسم والرسم. الروح والمادة، إلى نظرة شاملة في وحدة الوجود والمعرفة حيث يتجاوز العارج كل المراحل إلى وحدة الشهود ومنها إلى وحدة الوجود فتنجلي لقلبه وعقله أن المظاهر متعددة والوجود واحد.

فمن كانت له عين أهل البرزخ فإنه يحتاج إلى صفاء الرؤيا وطهارتها.

أما عين أهل التحقيق فإنها تتجاوز التعداد إلى الوحدة، وتتخطى المظاهر إلى الجواهر.

على حين أن أهل التفريق بين الحقيقة والشريعة يقفون عند حدود العالم المرئي المحسوس الملموس المشموم المسموع عالم الصفات ولا يمكنهم تجاوز ذلك فهم محجوبون عن الحق بالحواس وعنه بها والموحدون أهل الحقيقة هم وحدهم القادرون على تجاوز الحجب كلها والوصول إلى جوهر العالم.

النور والحجاب بين التصوف والفولكلور

في الرواية الشعبية المنسوبة إلى ابن عباس يمر الرسول «صلعم» على بحار من نور قبل أن يصل إلى فلك الحجب ويعمد في أنوار كل بحر منها فتتجلى له تبعاً لذلك معاني الحياة والموت ومراتب القدرة الإلهية[١٩].

وتبدو العلاقة واهية بين عمادة النور هذه وبين درجات العرفان التي يبلغها المصطفى في عروجه في الروايات الشعبية الأخرى للقصة وهي في معظمها تنزع نزعة الإدهاش والإغراب ولكن العلاقة المذكورة تتضح شيئاً فشيئاً في المعاريج ذات المنحى الصوفي التي تربط ربطاً محكماً بين الرمز والمرموز وبين الفكرة والصورة كما تتسم بالغموض وتتشح بالإبهام.

أيا كان الأمر فلا بأس من أن نستعرض مسافة النور أو نقطعها مع سيد العارجين قبل الوصول إلى مرحلة الحجب النهائية التي يهتكها العارج فتتجلى عن الاسم الأعظم.

وما النور وألوانه والبهاء ومظاهره والجلال وأنواعه والدخان والظلمة وما إليها غير أغشية تغطي على بصر المؤمن الذي لا تعجز بصيرته عن الوصول إلى وجه الحق.

يقول المصطفى «إلهي مولاي وسيدي غشي بصري نورك وبهاؤك وجلالك لكني أراك بقلبي»[٢٠].

وزج المصطفى في بحار النور هذه وعمادته فيها تأتي تلبية للأمر الإلهي مباشرة قبل هتك الحجب حيث يتخلف جبريل عن الرسول ويتركه وحده يتجاوز المقامات التي يحترق غيره فيها من شدة النور وسطوعه.

هذا النور الذي يتشكل بحاراً تفصل بينها مسافات هي في التقدير مئات من الأعوام تختصرها اشراقات النفس وإضاءتها ذوقاً وعرفاناً ونعمة سابغة من النور الأعظم على قلب المؤمن السالك المجاهد.

وينتقل الرسول في معراجه من بحر النور الأبيض إلى بحر النور الأخضر ثم إلى بحر النور الأصفر ثم يخرج منه إلى بحر من النور الأسود فيهوي ساجداً على شاطئه يطلب الكلام والمؤانسة من الله في فلك الوحشة والوحدة الذي يمثل درجة من درجات الصعود للنفس في خروجها من مدارات الجسد إلى أفلاك الروح العليا. إن التفرد والتوحد والتجرد عن الكائن الآخر والرحلة إلى الاسم الأعظم هي من أسباب هذه الوحشة والثمن الذي يدفعه العارج في صعوده وبالتالي عرفانه وذوقه وما يصاحب ذلك كله من دهشة وحيرة في الأفلاك حيث يتعرف العارج في كل مدار منها على قدرات إلهية متنوعة إلى أن يهتك الحجب ويكحل ناظريه بنور الحق.

ويأتي ترتيب الحجب التي يهتكها الرسول قبل المشاهدة في الرواية الشعبية لابن عباس كما يلي:

سبعون ألف حجاب من در أبيض، سبعون ألف حجاب من زمرد أخضر ومثلها من استبرق ومثلها من سندس ومثلها من نور ومثلها من الظلمة ومثلها من المسك ومثلها من العنبر ومثلها من الملكوت ومثلها من الجبروت.

ثم إلى حجاب الدخان فالنور فالعز فالكمال فالقهر فالعظمة فالوحدانية فالصمدانية فالبقاء فالعلى فالكبرياء فالحضرة الإلهية فيقول لما وصلت إلى حجاب الفردانية نظرت إلى الوحدانية وإذا النداء من الله تعالى: إرفعوا الحجب بيني وبين حبيبي محمد فرفعت حجب لا يعلمها إلا الله تعالى[٢١].

ويبلغ مجموع هذه الحجب المفردة الأخيرة ثمانية عشر حجاباً وتقع في ثلاث فئات:

أولاً: حجب من جواهر وأقمشة.
ثانياً: حجب من ضياء وظلمة ودخان وعطور.
ثالثاً: حجب ترمز إلى صفات الله الحسنى وأسمائه وقدراته.

قد يحسب القارىء لأول وهلة أنه ما من نظام خفي يربط ترتيب هذه الحجب معاً في الصورة التي وردت عليها في هذا النص ولكن عند التحقيق يتبين لنا أنها تتدرج من مستويات المحسوس إلى مستوى المفهوم أي أنها تتدرج من المشخص والمجسد إلى المجرد.

والسلم الخاص الذي ينتظم الترتيب العام هو انتقال العارج من المرئي إلى الملموس إلى المشموم إلى المفهوم وأخيراً إلى التصوري.

ويتبين لنا أن الحجب ما هي إلا مراحل على الطريق الصوفي أعلاها حجاب التوحيد وأدناها حجاب العالم. وهكذا تقف الوحدة نقيضاً للتعدد والإنسان إما أن ينحدر بهذا أو يسمو بتلك فإغراءات الحواس التي تتمركز في حجاب العالم تحول بين المؤمن والتوحيد الصحيح وبمجاهدتها وهتك حجبها يصل العارج إلى وحدة الشهود[٢٢].

وبعبارة أخرى، يخرج الصوفي من قيود العالم ويعرج من مقام إلى مقام، يهتك الحجب فتتولد في النفس حالاتها المتسامية وتجلياتها المضيئة الأمر الذي عبرت عنه رموز المعراج وصورت إطاره وتركيبه والحركة فيه في اتجاهات متنوعة.

وبلغة أكثر معاصرة، يخرج الصوفي من قيود العالم وأشكاله المتنكرة، يتعرى من الملكية والمهنة والطبقة وإذا اقتضى الأمر يتحرر من الأسرة كما فعل الغزالي حين رفض كل هذه الارتباطات المريحة وخرج في حج مكاني ورمزي في آن إلى مكة المكرمة بحثاً عن الحقيقة والنور.

وهكذا نرى أنه يمكن القول إن الصوفي في سلوكه أو في معراجه يرحل من جسد العالم إلى روحه، من قشرته إلى لبه من ظاهره إلى باطنه.

والشرط الصوفي هو دعوة لسيطرة الوحدة على التعدد والكثرة، إستئصال الفوضى بالرؤيا الواحدة.

هو رفض للظاهر الذي لا يقوم بنفسه بل بغيره وتعريسه عن حقيقته وأسّه.

وقد يكون التأمل إحدى الوسائل التي يتوسلها السالك إلى الوصول، لكن الممارسة الوجودية ورفض الظاهر وأشكاله المسيطرة الخداعة شرط أساسي لهذا الوصول. هذا هو المعنى الحقيقي لمصطلحي السلوك والعروج اللذين اتشحا بالغيب والعبارة الدينية. فالإسراء والمعراج رموزاً وأسماء وحركات، والسلم العجائبي والبراق والارتقاء في أفلاك السموات السبع واختراق الحجب إلى النور والتقلب بين الجحيم والنعيم، كل هذا ما هو إلا قصة رمزية لا تقصد لذاتها بل لما تتضمنه من معانٍ أخلاقية ومغازٍ روحية وممارسات وجودية فصلنا بعضها في هذه الدراسة.

وليس الصوفي إنساناً خانعاً في تكية أو زاوية أو صاحب خرقة بل إنسان ثائر يومن بالحق ويرحل إليه ويمارسُه في حياته، يجهر بما يعتقد ولو كلفه ذلك، الموت والشهادة كما جرى للحلاج الذي صلب في بغداد (٩٢٢م). ولكنه ينهض من الموت في أجيال مقبلة شاهداً على بطلان العالم وفساده متى تخلى عن الحق.

إن بقاء الله وفناء ما سواه، وحدانيته وشهود المؤمن لهذه الوحدانية هي طريق الإنسان الصوفي وخروجه من التمزق والانقسام إلى الوحدة والانسجام. وتأكيد له على أنه بعض من روح الله وصورته وخليفته على الأرض.

فلماذا إذن لا تلتئم الأجزاء في الكل وتنهض الحجب والحواجز في كل مكان بالممارسة الوجودية لوجود الحق والرحلة والثورة ورفض الأوضاع المريحة والموت إن اقتضى الأمر؟.

وأهل التحقيق الذين يسلكون في الشرط الصوفي أو يرتفعون على معاريجه لا ينـزهون الله والحياة عن معرفة الحواس فحسب بل يهدمون حجبها وحواجزها؛ يتجاوزون الأسماء والصفات إلى الذات.

ومتى أحللنا الأسماء مكان الذات، والصفة مكان الموصوف، خرجنا من التحقيق إلى التفريق، من رؤيا الوحدة إلى رؤيا الكثرة، من التوحيد إلى الشرك.

من هنا نفهم أن عملية الحجب التي يهتكها السالك أو العارج أسماءً كانت أو صفات، عطوراً كانت أو دخاناً أو ظلمة هي علامة خروجه على فساد العالم وبطلانه وبقاء الحق واستمراره وهي نفاذه من الصفات إلى الذات، ومساره ومسافة عروجه إلى الحق والنور الأعظم. هذا هو المعنى الحقيقي للتجربة الصوفية التي أساء تقييمها بعض الدارسين فأصاب آدابها ما أصاب من تنكر وإهمال حاولنا مخلصين أن نسد خلله في دراستنا هذه لمصادر الأدب الاسلامي ومعانيه.

هوامش

الباب الرابع

١ ـ مسلم، (صحيح مسلم) جـ ١، (القاهرة، لا تاريخ) ص ١٠٩ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٥ ـ ١١٧ ـ ١٤٨.

انظر أيضاً عبد الرحمن بن الجوزي كتاب(الموضوعات)جـ ١ ص ١١٦ ـ ١١٧.

أنظر أيضاً الترمذي(صحيح الترمذي)(المدينة، لات) ص ٩٢ ـ ٢٠٩.

أنظر أيضاً السيوطي،(الخصائص الكبرى) جـ ١ (القاهرة، لات) ص ٢٤٩ ـ ٢٧٧.

٢ ـ قرآن كريم، سورة، ٤٢. آية ٥١.

٣ ـ لا نرى ذكراً للحجاب في قصة المعراج التي أوردها ابن إسحق في السيرة وكذلك تخلو منه رواية(صحيح البخاري) جـ ٣ (القاهرة ـ ١٩٣٢) ص ٦٦ ـ ٦٧.

٤ ـ أنظر فوق رقم ١.

٥ ـ القشيري كتاب(المعراج)(القاهرة ـ ١٩٦٤).

٦ ـ نفس المصدر، ص ٥٨ ـ ٦٢.

٧ ـ أنظر أيضاً ص، ٥ ـ ٥٤ ـ ٥٦، ٦٠ ـ ٦١.

٨ ـ القشيري لطائف الإشارات، جـ ٣ (القاهرة، لات) ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

٩ ـ الغزالي(مشكاة الأنوار) (القاهرة ـ ١٩٦٤) قدم له وحققه أبو العلاء العفيفي ص ٥٣ ـ ٥٥ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٧.

١٠ ـ السهروردي (هياكل النور) (القاهرة، ١٩٥٩) حققه محمد علي أبو ريان. أنظر ص، ٨٠ ـ ٨٤، ٨٨ ـ ٩٠.

أنظر أيضاً: Seyyed Hossein Nasr, Three Muslim Sages, Cambridge, Massachusetts

١١ ـ القشيري كتاب(المعراج) ص، ٥٣ ـ ٥٤.

١٢ ـ أنظرقائمة كتب المعراج التي أحصيناها في دراستنا بالإنكليزية في مقدمة الفصل الأخير من هذا الكتاب.

١٣ ـ ابن عربي، (الفتوحات المكية) جـ ٣ (القاهرة، لات) ص، ١١ ـ ١٢.

١٤ ـ(أخبار الحلاج) تحقيق ل. ماسينيون وبـ كراوس (باريس١٩٣٦) ص ١٠٨ أنظر أيضاً: الغزالي (مشكاة الأنوار) ص، ٥٧.

١٥ ـ Nicholson Reynold. A «An Early Arabic version of the Miraj of Abü yazîd Al — Bistamî» **Islamica** vol II 1926 pp. 402 — 415 (1976)

١٦ ـ أنظر الباب الثاني في هذا الكتاب «الرمز والرؤيا».

١٧ ـ ابن عربي، (الإسراء) ص، ٥٨ ـ ٥٩.

١٨ ـ نفس المصدر، ص، ٥. أنظر أيضاً دراستنا بالإنكليزية. الفصل الأخير.

١٩ ـ (معراج ابن عباس) (دمشق، لات)، ص، ٢٢ ـ ٢٥.

٢٠ ـ نفس المصدر، ص، ٣٠.

٢١ ـ نفس المصدر، ص، ٢٦ ـ ٢٧.

٢٢ ـ تاج الدين العثماني النقشبندي من دلهي (١٠٥٠ هـ) في كتابه (تحفة السالكين في ذكر أخبار تاج العارفين)، يقول إن السالك يتم مقامات أو مراحل سبعاً على الطريق وفي كل مقام يزيل عشرة آلاف حجاب حتى يتم في المقام السابع سبعين ألف حجاب. ويصل إلى وجه الحق. ذكره محمد أمين المحبي في (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) جـ ١ (بيروت، لات) ص، ٤٢٩.

الباب الخامس

الكوميديا الإلهية
ومخطوطة المعراج الأندلسية

الكوميديا الإلهية ومخطوطة المعراج الأندلسية

١ ـ مقدمة:

في مؤتمر جمعية الاستشراق الأميركية المنعقد في جامعة جنوب كاليفورنيا بتاريخ ٢ ـ ٣ نيسان ١٩٧٩ كنت ألقي كلمة عن رسالة الغفران وأثرها في الأدب العربي الحديث وخاصة في قصيدة الزهاوي الملحمية «ثورة في الجحيم» (١٩٣١) ومسرحية الغفران لبنت الشاطىء (١٩٧٥) ومسرحية الغفران للكاتب المسرحي التونسي عز الدين المدني التي أخرجها الطيب الصديقي على مسرح محمد الخامس في الرباط وشاهدت المسرحية في عرضها الأول (١٩٧٦).

وكنت قد ألزمت نفسي ألاّ أخرج عن دائرة البحث التي حددتها الا وهي مؤثرات الرسالة في الأدب الحديث، وتو انتهائي من إلقاء الكلمة جاء دور الأسئلة والأجوبة، إستوقفني سؤال منها طرحه الدكتور جورج حداد وهو أستاذ عزيز على قلبي كان قد علمني تاريخ الحضارة في الجامعة السورية في دمشق أيام كنت طالباً في قسم اللغة العربية سنة الثقافة العامة. وجاء سؤال الدكتور حداد بصيغة التقرير ومنتهى الأدب واللطف اللذين عهدهما فيه كل من له معرفة علمية بالأستاذ الجليل: طبعاً أنت واعٍ لمؤثرات رسالة الغفران على الأدب العربي وخاصة الكوميديا الإلهية؟! مشيراً إلى دراسة آسين بلاسيوس في هذا الخصوص التي تناولت مؤثرات المصادر الإسلامية في الكوميديا وخاصة الرسالة والمعراج وصوره الكثيرة التي لم ينحصر أثرها في دوائر الآداب العربية والفارسية والتركية بل تعدتها لتقترن بنشوء الأدب الأوروبي في عصر النهضة وبزوغه وخاصة الكوميديا الإلهية لدانتي (١٣٢١ ـ ١٢٦٥) الأمر الذي يطرحه بلاسيوس

في كتاب مستقل اعتمدنا هنا ترجمته الإنجليزية في هذه الدراسة سنتناول مصادر جديدة للبحث لم يعرفها بلاسيوس رغم أنها تؤيد أطروحته ومقولته، إما لأنها لم تنشر في عهده أو لم تكتشف. ومن المؤسف الا تنقل القضية التي طرحها بلاسيوس في كتابه الإسلام والكوميديا الإلهية إلى القارىء العربي نقلاً موضوعياً أميناً فلم يترجم الكتاب إلى اللغة العربية. وعلق عليه تعليقات مبتسرة مجتزأة عتمت على طرحه العلمي وأضاعت على القارىء فرصة المعرفة السليمة.

يتسم عرض بلاسيوس بفهم القضية فهمًا شمولياً فهي ليست قضية شكلية لمؤثر ومتأثر بقدر ما هي تعبير عن تمازج حضاري أوسع تتناول كل الأشكال الدينية والأدبية والصوفية لنوع المعراج وتسربها إلى أوروبا النهضة ومظاهر تأثيرها في الكوميديا الإلهية مضموناً وشكلاً. رمزاً ورؤيا صوراً ودلالات في مقابلات ومقارنات رائعة فرضت سلطانها على ثقافة القرن العشرين لأكثر من ستة عقود وما زالت.

لقد استنفر الكتاب عدداً غير يسير من الاستجابات على أطروحته التي ترسخت مع مرور الزمن وأيدتها حركة البحث المتأخر.

وقد صنف بلاسيوس روايات المعراج ومطبوعاته والمؤلفات التي تتصل بهذا النوع الأدبي الفذ، وأحصى كل ما وقعت يده عليه حتى زمن تأليف الكتاب ونشره (١٩ ـ ١٩١٨م) ورتب ذلك في دوائر ثلاث:

الأولى: دائرة الإسراء.
الثانية: دائرة المعراج.
الثالثة: دائرة تدمج الدائرتين الأولى والثانية معاً، مبتدئاً بالقرآن فالسنة فالقصص الإسلامي المتعلق بهما منتقلاً إلى الأشكال الأدبية التي تصل بالقصة وجذورها في الفلسفة الإسلامية وتشكلها تشكلاً جديداً في إطار الرموز الصوفية.

وقد استوفى المؤلف مصادره المتنوعة وتناولها تناولاً مقارناً يعتبر الأول في هذا الباب.

ولما كانت الأوساط الأدبية عندنا لم تتعرف حقيقةً على المعراج كنوع أدبي متميز، ومحصولها من البحث في هذا الاتجاه فقير وانها واقعة تحت سيطرة العصرنة والتحديث وما يستتبع ذلك من تصنيف، فلم يحظ هذا النوع

باهتماماتها وأدرجته في باب القصص الديني وأهملته جاهلة أهميته الفلسفية والفكرية وخطورته الأدبية.

لذلك تشوهت القضية التي تناولها بلاسيوس في كتابه وانتقل التركيز من الأصل وهو المعراج إلى الفرع كرسالة الغفران، وأخرجت الأطروحة من محورها الأساسي وتشتتت في ذهن القارىء العربي على الأقل.

إن المعراج هو النموذج الأصل للرسالة، احتذاه المعري واستعار إطاره وتركيبه ليطرح من خلالها نقده الفكري والديني والأدبي والاجتماعي.

وتوافق الرسالة هوى المثقف العربي الذي يبشر بالعلمانية ولا يمارسها. ويتخذ من الدين موقفاً سلبياً ولا يعرفه معرفة صلبة ويجهل ثقافته الإسلامية، فرسالة الغفران أكثر إستجابة لهذا الموقف الفكري المستلب. ويمكن معه القول إن المتنور العربي لا يقرأ حقيقة قصص المعراج بكل أنواعه ويتركها إما للمختصين على ندرتهم أو للثقافة الشعبية والفولكلورية التي تتعلق بالأشكال وتنسى أصولها الحضارية وجوهرها الفكري.

وليس مبالغة القول: إن المطبعة العربية لم تطبع كتاباً واحداً للمعراج يمكن أن يأنس له القارىء العربي وتركت طبعات الرصيف الصفراء تنتظر من ينفض عنها الغبار وينقلها إلى دوائر الوعي.

ورغم أن آسين بلاسيوس قد أفرد حيزاً خاصاً في كتابه (الإسلام والكوميديا الإلهية) ناقش فيه مؤثرات الرسالة على الكوميديا في إطار الفرضية والتخمين الذي يستند على المقابلة والمقارنة بين المواضيع والأفكار والصور والأساليب لكل من المؤلفين غير أنه لم يستطع أن يؤيد مقارناته المقنعة وتحليله الأدبي الأسر بالوثائق الفعلية مفترضاً انه لا بد للرسالة وقد سبقت الكوميديا بما لا يقل عن خمسة قرون من أن تتسلل إلى أوساط الثقافة الأوروبية الناشئة بدءاًمن القرن الثالث عشر عبر الوسائط الحية الشفهية إن عبر الأندلس أو صقلية وجنوب إيطاليا أو الفترة الصليبية أو عبر ترجمات مكثفة لمصادر تفسير القرآن والسنة. ونحن مع الأستاذ عيسى الناعوري[1] وبنت الشاطىء من أن نقاط الإلتقاء بين الرسالة والكوميديا لا تتعدى الإطار العام والحوار بين صاحب الرحلة وسكان الجحيم والجنة.

أضف إليه ، أن فلسفة كل من المعري ودانتي وخلفياتهما ومزاجهما تختلف إختلافاً أساسياً بل إنهما ليتقاطعان أيضاً في نظرتيهما للوجود والحياة والموت والعقائد الدينية، فدانتي تصوفي شمولي رمزي، يؤكد على النعمة الإلهية والحب الروحاني ، بينما تقوم الرسالة على التشكك والهزء بأوهام الناس في قضايا الثواب والعقاب[٢].

٢ ـ الكوميديا وإشاراتها الإسلامية

الكوميديا الإلهية هي ملحمة شعرية قصصية لمؤلفها دانتي الاجيري الذي كتبها في مطالع القرن الرابع عشر الميلادي، وتتألف هذه الملحمة من ثلاثة أقسام: الأول الجحيم والثاني المطهر والثالث الفردوس، وهي من ملاحم الرحلات في العالم الآخر كالمعراج ورسالة الغفران اللذين سبقاها والفردوس المفقود لملتون[٣].

وتعتبر الكوميديا الإلهية مع ملحمة «أغنية رولان» نقطة انطلاق الآداب الأوروبية الحديثة لتحولها عن التعبير باللاتينية إلى اللغات الرومانسية. وتكتسي الكوميديا الإلهية أهمية خاصة بالنسبة لنا نحن العرب للعلائق التاريخية والموضوعية بينها وبين قصص المعراج، هذه العلائق التي درسها آسين بلاسيوس بالتفصيل في كتاب بالإسبانية نشره في مدريد عام (١٩١٩)وترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية.

وللكوميديا مستويات متعددة أدبية ودينية وفقهية ورمزية وحضارية وتصوفية. وتعتبر الكوميديا قصة رمزية Allegory لخبرة دانتي الروحية ومساره من عالم المادة إلى عالم الروح وعروجه من الجحيم إلى النعيم مروراً بالمطهر حيث تتطهر الأرواح من أدرانها وتستحق الانتقال إلى النعمة الإلهية.

والذي يؤكد إعجاب دانتي بمآتي الحضارة الإسلامية كونه أحل ابن رشد وابن سينا في «الليمبو» كأعظم مفكري اليونان وفلاسفتهم لكونهما جازا على فضائل العقل وحرمانهما نعمة الروح فما هما في الجحيم ولا هما في الجنة بل في منزلة بين المنزلتين[٤].

إن مؤسسة الترجمة التي رعاها هذا الملك الحكيم كانت قبلة أنظار المهتمين بفلسفة المسلمين وعلومهم وآدابهم. وتسرب هذه الترجمات إلى أوروبا وخاصة فرنسا وإيطاليا أصبح حقيقة واقعة كشفت عنها بحوث كثير من المستشرقين على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم.

ونحن الآن على يقين من أن قصة كاملة من قصص المعراج وأكثرها سعة وتفصيلاً قد ترجمت إلى اللغات الكاستيلية الإسبانية واللاتينية والفرنسية في وقت واحد من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٤ م) أي بما لا يقل عن أربعين سنة من إنجاز دانتي الاجيري للخطة العامة للقسم الأول من كوميدياه الإلهية (١٣٠٥م)(٧).

كما أن بعض المترجمين الذين تعاونوامع الفونسو المار ذكره كانوا من الطليان وان برونيتو لاتيني صديق دانتي وأستاذه ومستشاره الأدبي الذي تحلى بثقافة موسوعية كان سفيراً في كاستيل (١٢٦٠م) حوالي التاريخ الذي ترجمت فيه النسخة الأندلسية للمعراج إلى اللغات الثلاث المذكورة آنفاً. وكان مستقره في طليطلة وأشبيلية حيث تمركزت مؤسسات التربية والتعليم والثقافة والترجمة وقد لعب العرب دور المؤثر والمحرض إن بالتماس المباشر أو عبر الترجمة، فتلقف منهم الطليان والإسبان والفرنسيون علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم.

وإذا كان يسهل على الباحث أن يحدد المؤثرات في تلك العلوم ويحدد المصادر التي ترجمت إلى اللغات اللاتينية والرومانسية فإنه من الصعوبة بمكان أن يحسم ويقرر في قضية المؤثرات في العلوم الإنسانية والآداب لقلة الترجمات منها بالنسبة إلى الترجمات العلمية والفلسفية، إلا انه واضح في أذهان المستشرقين أن القرآن والسيرة وجزءاً هاماً من الحديث قد نقلت إلى اللاتينية منذ آواخر القرن الثاني عشر الميلادي. والخلاف بين الدانتيين وأخصامهم لا يتناول المؤثرات العلمية والفلسفية الإسلامية على الحضارة الغربية بقدر ما يتناول قضية الكوميديا الإلهية بالذات ومصادرها والمؤثرات الإسلامية عليها وبكونها عملاً شعرياً إبداعياً فإن مسألة الحسم فيها أكثر صعوبة ولكونها أيضاً تعتبر نقطة انطلاق الآداب الأوروبية الحديثة في عصر النهضة واستقلالها عن اللاتينية وتوسل الرومانسية في التعبير بدلاً عنها.

مهما يكن، لقد أصبح ثابتاً لدى الباحثين المنصفين من المستشرقين أن قصص المعراج بالذات لم ينتقل إلى الغرب بالوسائط الحية أو بترجمات مجتزأة تتضمن خلاصات عنها كتفاسير القرآن والسيرة وكتب الحديث والتاريخ فحسب بل أن هناك ترجمة فعلية لما وصفناه بالنسخة الأندلسية لقصة المعراج إلى اللغات الفرنسيةواللاتينية والإسبانية (الكاستيلية) وهي من أطول القصص وأكثرها إسهاباً وتفصيلاً وأحسنها بناءً وتركيباً وأغناها بصورالضوء والعطر واللون وألصقها بالتعبير الأدبي المبدع وأبعدها عن الفقه وعلوم التفسير والحديث مع حسن الإقتباس.والاستشهاد من القرآن والسنة وتنزهها عن النزعة التعليمية وشفافية رموزها وإشاراتها.

وقد كنت إلى أمد قريب غير مقتنع بنظرية بلاسيوس حتى وقعت على هذه الترجمة لأنها تشكل في نظري برهاناً وثائقياً ثابتاً كانت هذه النظرية بأمس الحاجة إليه.

وقد نشر هذه الترجمة الثلاثية وحققها مع مقدمة مستفيضة وتعليقات بالإسبانية خوزي مونوز سندينو Jose, Munos Sendino في مدريد عام (٤٩ ـ ١٩٤٧) بواسطة المديرية العامة للعلاقات الثقافية ورعاية وزارة الخارجية في كتاب تضمن دراسة مسهبة لهذه المخطوطة بالإسبانية وتعليقاً على ترجماتها الثلاث، وينوف الكتاب على (٦٦٠) صفحة من القطع الكبير.

ومن حسن الحظ أن الترجمة الفرنسية كانت متضمنة في هذا العمل النفيس فاعتمدت عليها اعتماداً أساسياً رغم أن فرنسيتها هي فرنسية القرن الثالث عشر فذللت صعوبتها بالجهد والصبر المتواصلين وقرأت المخطوطة قراءة كاملة واكتفيت هنا باختزال أبوابها العامة آملاً أن يعثر الباحثون على أصل المخطوطة العربي أو يترجمها المهتمون إلى اللغة الأم. أما الإسبانية فاضطررت إلى الإلمام بها لإتمام كتابة هذه الدراسة، ولفهم جزء غير يسير من مداخلات الأستاذ سندينو وتعليقاته وشروحه آملاً ممن يجيد الإسبانية من العلماء العرب أن يترجم هذه الدراسة النفيسة ودراسة اسين بلاسيوس على السواء لما لهما من أهمية تتصل بتراثهم وأدبهم.

٤ ـ أبواب مخطوطة المعراج الأندلسية وأقسامها العامة

الفصل الأول: الكلام عن مجيء الملك جبرائيل إلى محمد وما قاله له.

الفصل الثاني: الكلام عن الدابة التي قادها جبرائيل إلى محمد وأسرى عليها إلى المسجد الأقصى في القدس.

الفصل الثالث: الكلام عن الأصوات التي نادت محمد وما قاله جبرائيل عنها له.

الفصل الرابع: الكلام عما فعله محمد في المسجد ووجده قبل أن يؤدي صلاته ويتلوها.

الفصل الخامس: الكلام عن شكل المعراج الذي عرج عليه محمد إلى السماء.

الفصل السادس: الكلام عن صعود محمدالمعراج ورؤيته ملاكاً عظيمًا في الفضاء وعما قاله لمحمد عنه وعن أمته.

الفصل السابع: الكلام عمّا سمعه محمد من الملاك قبل أن يرى ويسمع ملاك الموت وعن الأمور التي سئل عنها وأجابته عليها.

الفصل الثامن: الكلام عن ملاك الموت وكيف يقبض أرواح النفوس الصالحة والشريرة.

الفصل التاسع: الكلام عن محمد ورؤيته ملاكاً على هيئة ديك وملاكاً آخر نصفه من نار ونصفه الآخر من ثلج وعما أوكل إليه.

الفصل العاشر: الكلام عن محمد ورؤيته خازن الجحيم وعما قاله له عن أمته.

الفصل الحادي عشر: الكلام عن محمد وسؤاله مالك خازن النار عن الأمور الكثيرة التي قـالها له وكيفية الجواب عليها.

الفصل الثاني عشر: الكلام عن محمد ودخوله السماء الأولى وما رآه فيها.

الفصل الثالث عشر: الكلام عن السماء الثانية.

الفصل الرابع عشر: الكلام عن السماء الثالثة.

الفصل الخامس عشر: الكلام عن السماء الرابعة.

الفصل السادس عشر: الكلام عن السماء الخامسة.

الفصل السابع عشر: الكلام عن السماء السادسة.

الفصل الثامن عشر: الكلام عن السماء السابعة.
الفصل التاسع عشر: الكلام عن السماء الثامنة.
الفصل العشرون: الكلام عن خطاب الله تعالى لمحمد ورؤيته للعرش.
الفصل الواحد والعشرون: الكلام عن محمد ورؤيته للملائكة الذين يحملون عرش الله تعالى.
الفصل الثاني والعشرون: الكلام عن رؤية محمد أصناف الملائكة في السماء أو حيث العرش الذي تكلم عنه فيما سبق.
الفصل الثالث والعشرون: الكلام عن محمد ورؤيته ملائكة وعن كيفية صورهم.
الفصل الرابع والعشرون: الكلام عن محمد بين الملائكة ورؤيته أنواع الأنهار المختلفة وجبال الثلج.
الفصل الخامس والعشرون: الكلام عن محمد ورؤيته بحراً عظيًا حيث الملائكة والسماء المحاطة بالأنهار.
الفصل السادس والعشرون: الكلام عن الله تعالى وخلقه كائنات كثيرة وأنواعاً مختلفة من المخلوقات.
الفصل السابع والعشرون: الكلام عن أرض بيضاء خلقها الله تعالى لأوليائه ومخلوقات فيها.
الفصل الثامن والعشرون: الكلام عن محمد كيف رأى في لحظة واحدة كل ما لم يره من قبل.
الفصل التاسع والعشرون: الكلام عن محمد ورؤيته للديك وعما يفعله.
الفصل الثلاثون: الكلام عن محمد ورؤيته جدار الفردوس (الأعراف) ومما هو وكيفية المجيء إليه.
الفصل الواحد والثلاثون: الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن الفردوس المار ذكره وعن إجابته عليه.
الفصل الثاني والثلاثون: الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن المسافة بين السماء الأولى والأرض وأمور أخرى.
الفصل الثالث والثلاثون: الكلام عن الجنة حيث خلق الله آدم والأنهار التي تجري فيها.
الفصل الرابع والثلاثون: الكلام عن الجنات وعن أسماء كل منها ونعمها.

الفصل الخامس والثلاثون: الكلام عن الحور العين التي في الجنة المار ذكرها وعما تحسنه.
الفصل السادس والثلاثون: الكلام عن وصف الفردوس المسمى بجنة النعيم.
الفصل السابع والثلاثون: الكلام عن مسرات ومحاسن جنة النعيم المار ذكرها.
الفصل الثامن والثلاثون: الكلام عما يصنعه أهل الجنة وعما يأكلونه.
الفصل التاسع والثلاثون: الكلام في وصف شجرة في الجنة اسمها طوبى.
الفصل الأربعون: الكلام عن شجرة أخرى من أشجار الفردوس التي حدثه عنها الملاك والنعم التي يسبغها الله.
الفصل الواحد والأربعون: الكلام عما يظهره الله تعالى لهم ويريه ويقوله ويعطيه.
الفصل الثاني والأربعون: الكلام عن كيفية ذهابهما إلى الجنة وكيف دخلاها.
الفصل الثالث والأربعون: الكلام عن أنهار وجبال وبساتين وعيون الجنة.
الفصل الرابع والأربعون: الكلام عن أشجار البساتين المار ذكرها وقصور وحور فيها.
الفصل الخامس والأربعون: الكلام عن محمد ورؤيته رضوان حارس الجنة وعما قاله له وأبداه.
الفصل السادس والأربعون: الكلام عن نهر يتخلل الجنة جميعاً وقصور وحور عليه.
الفصل السابع والأربعون: الكلام عن الملائكة يدلون الحور العين على أزواجهن في الجنة.
الفصل الثامن والأربعون: الكلام عن شجرة من اللؤلؤ وعن عين تجري تحتها.
الفصل التاسع والأربعون: الكلام عن محمد وتلقيه القرآن من الله تعالى.
الفصل الخمسون: الكلام عن فرض الله تعالى الصلاة على محمد وتكليفه بها.
الفصل الواحد والخمسون: الكلام عن صلاة محمد لله تعالى وعلى الصيام الذي كلفه به وفرضه عليه.
الفصل الثاني والخمسون: الكلام عن الأقداح الأربعة التي قدمت لمحمد ليشربها وعن أهمية كل منها.
الفصل الثالث والخمسون: الكلام من ذهاب محمد إلى أسفل الجنة وعما رآه فيها.
الفصل الرابع والخمسون: الكلام عن زيارة محمد لأرض الجحيم الأولى وعما رآه فيها.
الفصل الخامس والخمسون: الكلام عن أرض الجحيم الثانية.

الفصل الخامس والسبعون: الكلام عن إجابة جبرائيل لمحمد عن سؤال سأله إياه عن يوم الحساب أكبير هو أم صغير.

الفصل السادس والسبعون: الكلام عن صفة السراط وما يجب على المرء لاجتيازه وواجبات المرور عليه.

الفصل السابع والسبعون: الكلام عن جبال حول السراط المار ذكره وأنهار من النار وأشياء أخرى كثيرة.

الفصل الثامن والسبعون: الكلام عن أمة محمد وكيف سيتفرق شملها وكيف ستجتاز حد السراط.

الفصل التاسع والسبعون: الكلام عن محمد ورؤيته أنواع العذاب المختلفة التي يعذب بها الخطاة في الجحيم.

الفصل الثمانون: الكلام عن جبرائيل بترك محمد يودعه وعودته إلى منزله.

الفصل الواحد والثمانون: الكلام عن محمد ووصفه لبني قريش العجائب التي شاهدها.

الفصل الثاني والثمانون: الكلام عن محمد يعدد كل الأمور التي رآها لبني قريش وتكذيبهم إياها (إستجابتهم له).

الفصل الثالث والثمانون: الكلام عن تكذيب القريشيين لمحمد وسؤالهم إياه ليصف لهم القافلة.

الفصل الرابع والثمانون: الكلام عن محمد وإجابته على القريشيين وادعاءاتهم وقوله لهم الحقيقة.

الفصل الخامس والثمانون: الكلام عن تدوينه كل الأمور التي سبق ذكرها وهكذا ألف كتاباً أسماه المعراج(٨).

٥ ـ بعض نقاط الالتقاء بينها وبين الكوميديا

للذين يودون أن يتوسعوا في موضوع مؤثرات المصادر الإسلامية في ملحمة دانتي ليس لهم إلا أن يرجعوا إلى كتاب آسين بلاسيوس الذي أثبتت البحوث الحديثة صلب نظريته رغم الخلاف على جزء كبير من التفاصيل وهي أن شاعر النصرانية الأكبر مدين لهذه المصادر.

والأبحاث المقارنة اليوم لا تعنى بالمؤثر والمتأثر من الأدب تحت طائلة الاخذ

والنقل المباشر فالأواصر بينهما قد تقتصر على الإيحاءات الغامضة التي يوحيها مؤلف لمؤلف أو عمل أدبي على عمل أدبي آخر دون معرفة اللغة الأصلية بالضرورة، وفي حال كهذه قد يكون التأثير أبلغ فعلاً وأعمق أثراً لأن المتأثر يذعن للتصورات والخيالات التي يثيرها هذا العمل أو ذاك في مناخات من الإيحاءات لا ترتبط عضوياً بالأصل المؤثر.

أو تتعدى علاقة المؤثر بالمتأثر إلى عناصر بعينها من الأدبين أو المؤلفين أو العملين أو المدرستين أو العصرين كالموضوع والأسلوب وما يرافقهما من بنى فكرية ونفسية وفنية.

ورغم إصرار بلاسيوس على التفاصيل من حيث العلاقة بين ملحمة دانتي والمصادر الإسلامية فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن المؤثرات الاسلامية تتناول التصور العام أكثر مما تتناول الجزئيات في ملحمة الشاعر الالجيري.

كما أعتقد أن هذا التصور إنعكس أكثر ما انعكس في قسم الجحيم من ملحمة الشاعر أما المطهر الذي يذكرنا بالأعراف فيكاد يكون رمزاً منفصلاً عن قصص المعراج وألصق بالمصادر القرآنية كالتفاسير وغيرها.

فالأعراف وهي جدران تفصل بين النار والجنة لا يمكن أن تشكل أصلاً لمفهوم المطهر، كما أن «الموقف» الذي ينتظر فيه ابن القارح ستة أشهر ليدخل الجنة في رسالة الغفران لا يمكن أن يوحي بمفهوم المطهر أيضاً.

وأقرب شيء في نظرنا لهذا المفهوم من الناحية الفكرية والفلسفية لا من الناحية الفنية هو مفهوم المعتزلة من أن مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين لا في الجنة ولا في النار، حتى يحكم الله فيه يوم القيامة.

أما أن يكون دانتي قد ركب أقانيم «الأعراف» والمفهوم المعتزلي الفلسفي وظاهرة «الموقف» الفنية في رسالة المعري في كل واحد هو «المطهر» فهو أمر يستبعده البحث الرصين مع كونه ممكناً.

أما القسم الثالث والأخير من ملحمة دانتي وهو «الفردوس» فالمؤثرات تتناول البناء الفني والخيال العام لا المفهوم الروحي أو الفلسفي، وأياً كان الأمر أمر الجزئيات والتفاصيل وعناصر المؤثر والمتأثر فإن الكوميديا الإلهية ككل

ولدت في مناخات الحضارة العربية ورحم آدابها مع كونها كائناً مستقلاً متميزاً يعبر عن تصور روحي مغاير للموت والحياة والعالم الآخر.

إن المعراج بتمايز أقسامه وتنوع نماذجه وكثرتها واستمراره كنوع أدبي قائم بذاته ودخوله في الطقوس الدينية والصوفية هو السابق، هو النموذج للكوميديا الإلهية.

ويؤكد الأستاذ سنديتو على أهمية النسخة الأندلسية للمعراج وترجمتها ويستمر مستفيضاً بدقة وموضوعية على خطة بلاسيوس في الكشف عن التقابل بينها وبين الكوميديا الإلهية متوسلاً منهجه في تحليل الرموز والصور والأفكار ومقابلاتها في نصي المعراج والكوميديا. نخص بالذكر منها الأمور الآتية:

أولاً: لقد قاد دانتي عبر رحلته كل من «فرجيل» و «ماتيلد» و «بياتريس» و «سان برناردو» بالتتابع وقد أسبغ الشاعر على كل من هذه الشخصيات أهمية خاصة ورمز بها إلى مستوى من مستويات الروح ففرجيل يمثل التراث كما يمثل العقل وماتيلدا وهي صديقة بياتريس حبيبة دانتي تمثل الحياة المجسدة الحية وبياتريس تمثل الحب الإلهي وسان برناردو يمثل النعمة السماوية وهكذا.

أما الرسول العربي فقد قاده في صعوده كل من جبريل ملك الوحي معرجين إلى عزرائيل ملك الموت ومالك خازن الجحيم ورضوان حارس الجنة، ولا يخفى ما بين هذه الشخصيات وشخصيات دانتي من تقابل في الرؤيا والرمز.

ثانياً: يطول بنا الكلام إذا أردنا الوقوف عند الصور الجزئية التي تناولها سنديتو بالتحليل والمقارنة لذلك نكتفي منها بالإلماع إلى صورة النسر العظيم الذي يتشكل من أفواج من الملائكة في ملحمة دانتي، وهى من أعظم الصور الإبداعية التي خيلت عقول الدانتيين. هذه الصورة بالذات تذكر كلاً من بلاسيوس وسنديتو بصورة ديك العرش في المعراج. رأسه تحت العرش وقدماه في الأرض السابعة، وهو ملاك ضخم على صورة الديك يسبح الله في ضوء الألوهة ويصيح فتردد معه ديوك الأرض وخلائقها في السماء والأرض هذا التسبيح جوقة واحدة.

أما الأمر الذي استرعى انتباه سنديتو وأدهشنا هو أن كثيراً من أوصاف

الجبال والوديان والأنهار في النسخة الأندلسية المترجمة للمعراج وتركيبها الطوبوغرافي وبنية التصور العام لا يتشابه مع الكوميديا الإلهية فحسب بل يكاد يتطابق في أقسام كثيرة منها.

وتتمايز نسخة المعراج الأندلسية عن باقي المعاريج بكونها تناسب بين الصعود في السماوات السبع، مخصصة سماء ثامنة منفصلة لله العلي الأعلى، والهبوط في الأراضين كجزء من الرحلة إلى النار.

فالسماء الأولى وهي من الحديد هي كرسي يحيى وعيسى.
والسماء الثانية من الرصاص وهي ليوسف.
والسماء الثالثة من الفضة وهي كرسي الياس وإدريس.
والسماء الرابعة من ذهب وهي لهارون.
والسماء الخامسة من لؤلؤ وهي لموسى.
والسماء السادسة من فيروز أخضر وهي لإبراهيم.
والسماء السابعة من عقيق فهي لآدم.
أما السماء الثامنة فهي من الياقوت وهي كرسي العرش.
ويقابلها طبقات الأراضين السبع في الهبوط إلى الجحيم:
الأرض الأولى وهي أرض الجلادة.
والأرض الثانية وهي الأرض العرقاء أو الأرقى «Arka»
والأرض الثالثة وهي الأرض الحرباء.
والأرض الرابعة هي أرض الملطع.
والأرض الخامسة وهي الأرض الزاهقة.
والأرض السادسة وهي الأرض الحاجب.
والأرض السابعة وهي الأرض الفلق.

وكذلك تتناسب وتتقابل أبواب الجحيم مع بوابات النعيم تقابلاً ملحوظاً أما أبواب الجحيم فهي سبع وتجري كما يلي:

باب جهنم، وباب اللذعة وباب الحطمة وباب الظاهر أو الزائر ثم باب سقر وباب الجحيم وباب الكاوية.

تقابلها فراديس النعيم السبع، وهي كما يلي:

فردوس عدن، فردوس الجلال، فردوس السلام، فردوس المأوى، فردوس الخلد، دار الفردوس، النعيم.

فالتصور العام والخيال المعماري لكل من النسخة الأندلسية للمعراج والكوميديا الإلهية يتلاقيان في العديد من سماتها البارزة إن نحن تجنبنا الإغراق في التفصايل والأمور الجزئية.

ذلك كله كان في متناول المتنور الأوروبي لا عبر الوسائط الحية والشفهية بل باللغات المكتوبة عبر الترجمة التي رعتها المؤسسات العلمية للدولة فكانت هذه الترجمة المثلثة البركات.

أما أن يريد الدانتيون التمحل في وصول أو عدم وصول هذه الترجمة إلى شاعرهم فهو أمر تنفيه القرائن. إن النسخة الأندلسية للمعراج بما تحتويه من نقاط التقاءمع الكوميديا الإلهية في البناء العام أو الشخصيات والتصوير الفني وكون هذه النسخة متداولة في دور العلم باللغات الحية للثقافة الأوروبية في مطالع عصر النهضة لا تدعم نظرية بلاسيوس فحسب بل بحسمها حسمًا أكيداً في صالح المؤثرات الإسلامية. وللأستاذ سنديتو الشكر الجزيل على جهوده العلمية الرائعة لا على نشره هذه المخطوطة النفيسة La Escala de Mahoma فحسب بل على دراسته المصاحبة ومداخلاته ومقدماته وحواشيه وتوثيقه التي لا تقل قيمة عن إسهام بلاسيوس وإنجازه[٩].

خاتمة

ويهمنا أن نؤكد في هذه الخاتمة أن الحضارات لا تولد من الفراغ والنهضات لا تنشأ من العدم وأن الحضارة الإنسانية كل لا يتجزأ وللبشرية جمعاء أن تعتز بهذه الحضارة ومشاركاتها فيها كائناً ما كان حجم هذه المشاركات. أما الذين يريدون أن يقسروا المقولات العرقية أو المذهبية أو الدينية على هذه الحضارة ويطوبونها لهذا العرق أو هذا الشعب أو يخرجون من شرف إنشائها وبنائها هذه الأمة أو تلك فإنهم لايزالون يعيشون في ربقة أفكار سلفية بالية أوجدتها عهود منقرضة من الاستعمار الفكري والسياسي نادت بتفوق جماعات من البشر على جماعات أخرى من أجل السيطرة والهيمنة الاقتصادية على ثرواتها وخيراتها وإبقاء

الفكر الإنساني في عتمة الاستئثار والاحتكار بعيداً عن روح التحرر التي أخذت تنهض الشعوب من كبواتها وجعلتها تدرك مكانتها من حضارة الإنسان المتكاملة الواحدة إن عمقاً في التاريخ من حيث السياق الزمني أو من حيث المكان على هذه الأرض.

وهذه حضارات ما بين النهرين ووادي النيل إنفتح بعضها على بعض إقتباساً وتمثيلاً وتوليداً، ثم هذه حضارات اليونان والرومان التي تمثلت حضارات الشرق، وأضافت عليها ثم جاء العرب والإسلام وجاءت معهم أكبر حركة إستيعاب فكري وثقافي في التاريخ، فهضموا في آن تراث الهند واليونان وفارس والرومان كما هضموا تراث ديانات التوحيد هضمًا كلياً تكشف لنا في فقههم وأدبهم وعلم كلامهم وتصوفهم وفلسفتهم ثم أضافوا إلى ذلك كله مولدات فكرهم واختباراتهم في شتى الحقول وقدموه لأوروبا فنهضت شعوبها بحيوية جديدة تجلت في حركة اكتشاف رائعة في المكان والزمان والتراث والاكتشاف العلمي آخذة بيد البشرية صوب الأزمنة الحديثة.

ولم يتم ذلك كله عفواً أو عن طريق المصادفة، بل غالباً ما كان يأخذ شكل المؤسسة المنظمة الواعية لدور العقل والحضارة في إسباغ نعمة التقدم على الأمم. فهذه مدرسة الحكمة في بغداد ترث مدارس السريان فتنظم عملية الترجمة والتمازج التراثي برعاية المأمون يقابلها مدرسة طليطلة وأشبيلية التي رعاها الفونسو الحكيم، وتمت عن طريقها ترجمات عديدة في كثير من الميادين ومن بينها ترجمة ما أسميناه بالنسخة الأندلسية للمعراج ترجمة كاملة إلى لغات ثلاث هي الوسائط الأساسية في عمليات التمازج العلمي والثقافي والفكري بين أوروبا والعرب.

ويهمنا أن نؤكد هنا أن ولادة الآداب الأوروبية كولادة فنون عصر النهضة وحركات إكتشافه الجغرافي والعلمي والفلسفي لا يمكن أن تفهم فهمًا كاملاً إن هي عزلت عن مؤثراتها العربية والإسلامية وإن حركة بحث منظم في الآداب يقود إلى ما قادت إليه حركة البحث المنظم في الفلسفة والعلوم وهي أن فنون أوروبا وآدابها في عصر النهضة والتكوين تنفست الحياة في رحم الإنجازات الحضارية العربية والإسلامية.

وهذه ملحمة رولان (Chanson de Roland) كتبها الشاعر إستجابة لحركة الفتوح الإسلامية بين جيوش شارل مارتل والجيوش الإسلامية. ثم هذه حركة شعراء «التروبادور» وبزوغ الشعر الغنائي في اللغات الأوروبية وخاصة شعر الحب لا يمكن عزلها عن حركة الموشحات وشعر الغزل ووصف الطبيعة وهو أمر لم يغفله المختصون من المستشرقين في دراساتهم المسؤولة المنزهة.

وملحمة الكوميديا الإلهية لدانتي التي تعتبر منعطفاً مهمًا في نشأة الآداب الأوروبية لم تكن لتشذ عن عملية التمازج الثقافي هذه بل إن نشأتها لتتصل إتصالاً مباشراً بمؤثرات المعراج وتصوراته الفكرية والغيبية وبنيته الفنية.

هوامش

الباب الخامس

(١) عيسى الناعوري (أدباءالشرق والغرب)، بيروت ١٩٦٦. ص ١١٤ ـ ١٢٢.

(٢) أنظر Palacios، ص ٢٦٣ ـ ٢٤٦.

(٣) **The Comedy of Dante Alighieri,** Translated By Dorothy L. Sayers. England 1968 — 1967 **I HELL — II Purgatory III Paradise.**

(٤) أنظر ـ I. Hell ص ٩٥.

(٥) المصدر السابق ص ٩٤.

(٦) Asin Palacios. **Islam And The Divine Comedy,** Translatel by Harold Sutherland N. Y. 1968. PP. 54 — 67.

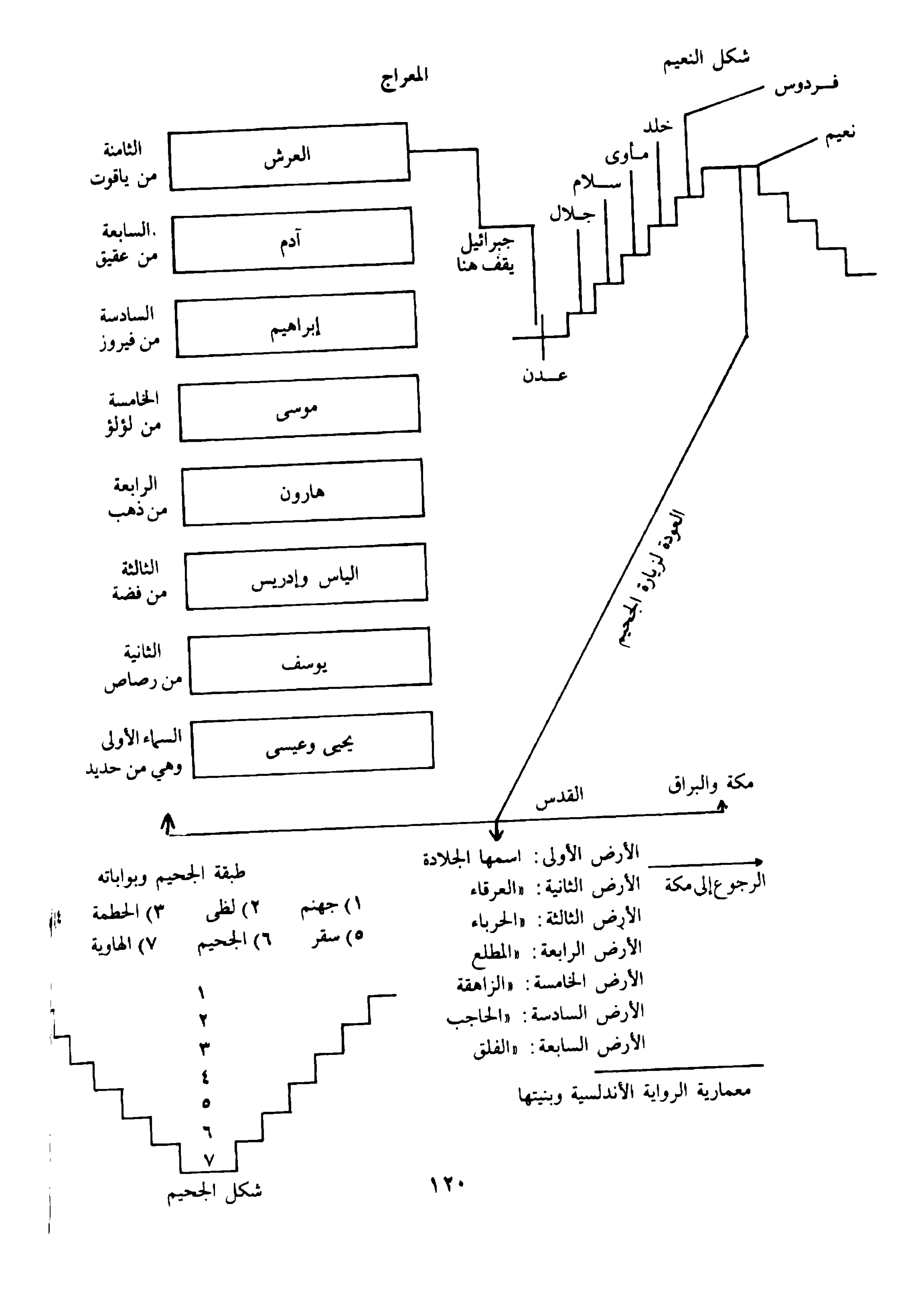
(٧) La Escalade Mahoma, Traduction de l'Arabie Al Castellano, Latin. Y. Frances, Ordenda Por ALFonso x El Sabio, Edition, introduction - y Notes Por Jose Munoz Sendino Madrid 1949.

أنظر أيضاً Palacios، الهامش رقم ٦.

(٨) . La Escala de Mahoma PP. 254 — 263

(٩) Dorthee Metlitski, The Matter of Araby In Medieval Engl nd, Yale 1977

وصفت مخطوطة اكسفورد للمعراج واغفلت ذكر سنديو.



معمارية الرواية الأندلسية وبنيتها

الباب السادس

تنويه

هذا معراج النبي (صلعم)

تنويه

يناهز عمر هذه المخطوطة التي كان يملكها المرحوم الشيخ داوود الرفاعي القرن من الزمن. وقد جاء على الصفحة الأولى منها إسم الناسخ وهو حسين خزوم في صورتين الأولى بخط اليد وقد ذُيلت بتاريخ هجري يعود إلى ١٢٩٩، والثانية بختم نحاسي أُرخ بـ ١٣٠٠ هـ. ونرجح أن التاريخ الأول هو تاريخ نسخ المخطوطة والثاني هو تاريخ حفر الختم.

وينسب الناسخ الرواية إلى ابن عباس في الصفحة الرابعة منها بعد أن يفتتح قصة المعراج بدعاء مسجع طويل ويذكر ظروف حدوثه وتاريخه مستشهداً بآية الإسراء.

وليس في ذهننا أدنى شك أن الرواية الأصلية هي لابن عباس أما بناء القصة ككل فهي من عمل قصاصين متعددين يتخذون رواية ابن عباس كأساس ويبنون عليها.

وليس بعيداً أن تكون هذه المخطوطة قد نسخت عن أصل قديم بقرينة كتابة بعض الكلمات: كالسموات والصلوات والقيامة وهارون وغيرها بالألف غير الموصولة على طريقة خطوط الكلمات القرآنية. وما من ريب أن النساخ قد أضافوا مواداً وعناصر إقتبسوا معظمها من القرآن والسنة وزاد بعضهم إستشهادات شعرية تعود أساليب نظمها وأشكالها بالذاكرة إلى أسلوب عصور الإنحطاط. والمخطوطة توافق في مبناها وتركيبها رواية ابن عباس الشعبية المطبوعة في دمشق دون تاريخ لكنها تختلف عنها وعن روايات أخرى كثيرة إستعرضناها في موضع آخر من هذه الدراسة في التفاصيل والجزئيات في الملائكة

والأنبياء مراتبهم وأدوارهم ووظائفهم وفي أوصاف الجحيم وعقوباته المتنوعة والجنان أقسامه وأبوابه.

ولنذكر أمثلة على أهمية التفاصيل، نذكر القارىء بوصف المخطوطة التي حققناها لأقدام العرش التي تمثل حياة الحيوان بكل أشكالها كالإنسان والسباع والطير والدواب كل يسبح الخالق باسم جنسه.

كما نذكره بديك العرش وهو ملاك على صورة الديك الذي تسميه المخطوطة بدحيابيل وفي وسطه ملك قاعد على كرسي من نور.

كما نذكره بالآية الكبرى التي تحيط بأصناف الملائكة الذين على صورة بني آدم وهي حية بسبعين ألف جناح من الزمرد الأخضر وعلى كل جناح سبعون ألف ملك بيد كل منهم لؤلؤة من النور رأسها من الذهب وعيناها من الياقوت وهي محلقة فوق العرش كلهم يسبحون باسم العلي الأعلى.

وحورية الكافور وإسرافيل والصور وبوابات النعيم وأسماء الفراديس وغيرها من التفاصيل التي خلت منها أربعون رواية للمعراج صرفنا في صحبتها سنين كثيرة. وهي تفاصيل على غاية من الأهمية للذين يدرسون المعراج من ناحية التصوير الفني.

والذي شجعنا على تحقيق مخطوطتنا هذه كونها قريبة من رواية نسخة اشبيلية التي لم تحتفظ لنا المكتبة الأندلسية حتى الآن بأصلها العربي. ونرجح أنها جميعاً قد تطورت عن رواية ابن عباس وقد احتفظ لنا القشيري في كتاب المعراج بنسخة منها.

فالرواية الشعبية ومخطوطتنا صورة من صورها ماتزال تحتفظ بنكهتها الصوفية لا في ظاهرةالحجب فحسب بل في علاقة العارج بالحق محمد هو حبيب الله خلقه من نور وجهه.

إن التحريف والتصحيف والأغلاط الصرفية والنحوية البالغة والكثيرة قرينة دالة على لغة عصور الإنحطاط وتدل دلالة قاطعة على أن الناسخ ينسخ ولم يؤلف.

لقد ذللنا الصعوبات الأساسية في التحقيق بالرجوع إلى المعراج كنوع أدبي

مستقل بدأ مع الرسول واستمر التأليف فيه حتى مطالع القرن العشرين ويعني مصطلح التأليف هنا العودة إلى النموذج والأصل والبناء عليه.

ولعل نموذج المعراج الفقهي والتاريخي هو الأغلب أما النموذج العجائبي الفولكلوري الذي يجسد الخيال الشعبي فهو الأجمل والأروع. أما النموذج الصوفي فيمتاز بالعمق وبالرمز.

والتأليف في المعراج هو نوع من فيض الذاكرة الجماعية والخيال الكلي يتخذ أرضيته وأساسه من التقليد وينطلق من هنا زامل التقدير عندنا من الناحية الجمالية التحقيق وأدركنا أن إضافات القصص الديني يجب أن تحاكم بمعيار فني لا بمعيار الإسناد في الحديث إلا في الكتب الصحاح وما شاكلها.

هذا معراج النبي (ﷺ)

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، العزيز الجبار، القوي القهار، الحكيم الستار، مدبر الليل والنهار، الذي أسرى في رجب الفخار، بمياج الأقطار، فلما دعي صلى الله عليه وسلم إلى نيل بلوغ الأوطار، فقام سيد العباد (صلعم) متأزراً ببردات سعود، وسما علوا[1] لعلو المقدار فبينما على سرير نومه، بين أهله وقومه، متلفحاً بحلل الوقار، مقيمًا في محلـة الافتخار، مضجعاً على فراش الأمن في بيت أم هانىء وما علم[2] أن التهاني تضرب بدفوف الإنذار وملائكة السماء في الإنتظار، إذ ناداه البشير، يا أيها النذير قم لقد أمرك الملك القدير، أن تركب وتسير، على براق الوقار، لمن أراد الإنذار، ومن لا تدركه الأبصار، فلما سمع النبي (صلعم) هذه الأخبار، وتليت عليه الآثار، قام وبه من نومه أثر خمار، فقال من هذا المنادي، في هذا الليل الهادي، ومن ذا الحادي الذي حدا، فأقلق بشجوه الأفكار، قال الله تعالى «سبحان من أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»[3] (ولنريه)[4] من عجائب قدرتنا واختلف الناس في المعـراج والإسراء هل كان يقظة أم مناماً بل من الغيب ولم ينكروا ذلك (ولكن) المشركين أنكرت ذهابه إلى بيت المقدس وصعوده السموات السبع ورجوعه إلى فراشه في ليلة واحدة وذلك هين على الله تعـالى،[5] وكان الإسـراء والمعراج في سبـع وعشرين ليلة خلت من رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل بعد النبوة بخمسة أعوام وقيل سبعـة أعوام، وقيل كان الإسراء سبع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، والصحيح أن الإسراء كان بجسده المكرم ورأى ربه سبحانه وتعالى بعين

رأسه (صلعم) والصحيح كان الإسراء في سبع وعشرين ليلة خلت من شهر رجب قبل الهجرة بسنتين وورد عليه حديث مسند رواه الترمذي[٦] وأمر بصيامه رسول الله (صلعم)، وقال من صام يوم سبع وعشرين من رجب الغرر لقي الله تعالى وهو عنه راضٍ والهمه الله الذكر عند سكرات الموت وأمنه من العطش الأكبر في الدنيا والآخرة.

ومن صام يوم سبع وعشرين من رجب جعل الله بينه وبين النار سبعين حجاباً سمك كل حجاب خمسمـائـة عام. قال ابن عباس رضي الله عنهما بينما كان رسول الله (صلعم) في بيت أم هانىء بنت أبي طالب واسمها فاختة رضي الله عنها وكانت ليلة الإثنين من السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع أو ثمانٍ من البعث وكان عنده ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعمرها تسع سنين ولم تكن مزوجة بعلي رضي الله عنه لأنه تزوجها بالمدينة المشرفة، وإذا بالباب قد طرقه طارق فخرجت فاطمة لترى من في الباب فرأت شخصاً مهاباً عليه الحلي والحلل، وله جناحان أخضران قد سدّ بهما بين المشرق والمغرب، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر، مكتوب على جبهته لا إله إلا الله محمد رسول الله، قالت فاطمة رضي الله عنها: فقلت له ما تريد؟

قال: أريد محمداً رسول الله ﷺ، فـرجعت ودخلت على رسـول الله (صلعم) وقلت: يا أبتاه على الباب شخص قد أهالني وأفزعني ما رأيت مثله أبداً وقال أريد محمد (صلعم) فخرج سيد الخلق (صلعم) فلما رآه جبريل ناداه: الصلاة والسلام عليك يا حبيب الحق:

فقال النبي (صلعم): يا جبريل

قال: لبيك وسعديك

فقال النبي (صلعم): يا جبريل هل[٧] حاد حدا أو وحي نزل أو أمر حدث.

فقال جبريل: يا حبيب الله قم والبس ثيابك وسكّن قلبك في هذه الليلة تناجي من لا تأخذه سنة ولا نوم

قال النبي (صلعم): فلما سمعت كلام أخي جبريل عليه السلام، نهضت فرحاناً مسروراً وشددت عليَّ ثيابي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فداك أبي وأمي ما كانت ثيابك يا رسول الله

فقال: بردتان يمانيتان إئتزرت بالواحدة واتشحت[٨] بالأخرى وخرجت إلى الصحراء وإذا بالبراق[٩] قائمًا بيد جبريل يقوده وهي دابة لا شبه لها في الدواب تكون فوق الحمار دون البغل أبيض الوجه وجهها كوجه الإنسان وجسدها كجسد الفرس وهي دابة من أحسن دواب الدنيا وما فيها، عرفها من اللؤلؤ الرطب كأنها الياقوت الأصفر، عنقها من الزمرد الأخضر، كفها من اللؤلؤ الأبيض وذنبها كذنب البعير وهو من العنبر الأشهب ورأسها من الياقوت الأحمر، طويلة اليدين والرجلين مدورة الحوافر، عليها سرج من الذهب الأحمر ركاباتها من الزمرد الأخضر، لجامها من الفضة البيضاء، عيناها مثل الكوكب جسدهاله شعاع كشعاع الشمس وهي شهلاء بلقاء محجلة ثلاثاً مطلوقة اليمين عليها جلال من نور مرصع بالدر والجوهر لا يقدر أن يصفه أحد إلا الله عزّ وجلّ ولها نفس كنفس بني آدم.

قال النبي (صلعم): لما رأيت البراق عجبت منه.

فقال جبريل: تقدم يا حبيب الله إركب فتقدمت لأركبها فاضطربت كما تضطرب السمكة في الشبكة.

فقال جبرائيل: يا براق أسكن أما تستحي تنفر من بين يدي سيد الخلق (صلعم) فوالذي خلقه وخلقك ما ركب على ظهرك أكرم على الله منه.

فقال البراق: قد ركب عليّ آدم صفوة الله وإبراهيم خليل الله فمن هذا الذي هو خير منهما.

قال جبرائيل: يا براق هذا حبيب الله وسيد العالمين أفضل أهل السموات والأرضين، قبلته الكعبة دينه الحنيفية وكل الخلق يرجون شفاعته يوم القيامة، الجنة عن يمينه والنار عن شماله من صدقه دخل الجنة، ومن كذبه دخل النار.

فقال البراق: يا جبرائيل قل لصاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر والخد الأحمر والحوض والكوثر والشفاعة الكبرى ان يدخلني بشفاعته أركبته ظهري حتى يطأ على نحري فيزداد بذلك فخري ويكون في القيامة ذخري.

قال النبي (صلعم): أنت يا براق في شفاعتي ومعيتي يوم القيامة قال فدنت من النبي (صلعم) فركبها فطارت بين السماء والأرض.

فناداني جبرائيل عليه السلام: إنزل يا حبيب الله فصل ركعتين

قال النبي (صلعم): نزلت فصليت ركعتين، وقلت كيف أمرتني بالصلاة

ههنا؟ قال يا محمد هذا وادي العقيق، ثم ركبت وسرنا ما شاء الله، وإذا بصائح يصيح عن يميني وهو يقول: قف يا محمد عليّ قليلاً حتى أكلمك فإنني أنصح البرية لك ولأمتك قال سرت ولم ألتفت إليه، وكان ذلك فضلاً من الله عزّ وجلّ.

ثم سرت ما شاء الله وإذا بصائح يصيح عن شمالي قف يا محمد عليّ قليلاً حتى أكلمك فإني أنصح البرية لك ولأمتك، فسرت ولم ألتفت إليه وذلك توفيق من الله عزّ وجلّ، ثم سرت ما شاء الله وإذا بامرأة نشرت شعرها[١٠] عليها من كل زينة خلقها الله من حلى وحلل والجوهر والدر والياقوت، قد أشرق حسنها وجمالها وهي تنادي: يا محمد قف حتى أكلمك كلمتين فإني أنصح لك ولأمتك قال فسرت ولم ألتفت إليها وكان ذلك فضلاً من الله عز وجلّ ثم سرنـا ما شاء الله وإذا بصوت عظيم قد أفزعني وكاد منه يطير عقلي فلما سمعت الصوت سرنا ما شاء الله أن نسير وإذا نحن ببيت المقدس.

فقال جبرائيل يا محمد أتعرف الصياح الأول الذي جاءك عن يمينك من هو؟

قلت اللهم أعلم.

قال ذلك داعية اليهود لو أجبته لتهودت أمتك إلى يوم القيامة، وأما الذي ناداك عن شمالك فذلك داعية النصارى لو أجبتـه لتنصرت أمتـك إلى يوم القيامة، وأما المرأة التي رأيتها نشرت شعرها مزينة بحللها فتلك الدنيـا فلو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخـرة وصارت[١١] إلى النـار، والصيحة العظيمة التي سمعتها فتلك صخرة عظيمة لها تهوي خمسماية عام والساعة قد أستقرت في جهنم.

قال النبي (صلعم) ثم إن جبرائيل عليه الصلاة والسلام سبقني إلى بيت المقدس فاتبعته وإذا به قد قام ومعه ثلاثة أقداح، في أحدها لبن وفي الثاني خمر وفي الثالث ماء فقال لي إشرب أيها شئت فأخذت[١٢] اللبن، فشـربت منه إلا قليلاً فقال لي جبرائيل فلو أخذت الخمرة لغوت أمتك من بعدك ولو شربت اللبن كله لما دخل أحد من أمتك إلى النار، فقلت يا جبرائيل يا أخي رد القدح حتى أشرب ما بقي فيه فقال جبرائيل يا حبيبي يا محمد قضي الأمر وجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

فقلت يا أخي أكان ذلك في الكتاب مسطوراً؟ قال نعم يا محمد.

ثم إن جبرائيل أخرجني إلى عند صخرة بيت المقدس وإذا أنا بالمعراج قد نصب من الصخرة إلى عنان السماء فلم أرَ شيئاً أحسن من المعراج وهو مرقاة من ذهب ومرقاة من فضة ومرقاة من الياقوت الأحمر ومرقاة من الزبرجد الأخضر قال النبي (صلعم) فعند ذلك مر جبرائيل عليه السلام في ألف مائة نبي ثم أذن وأقام الصلاة فصليت قال النبي (صلعم) فعند ذلك ضمني جبرائيل إلى صدره ولفني[١٣] بجناحيه بين عينيه وقال لي إركب يا محمد، قال النبي (صلعم) فسمعت الملائكة وهم يبشرون بعضهم بعضاً ويقولون قد جاء محمد حبيب الله زائراً إلى ربه سبحانه وتعالى فعند ذلك صعدت أنا وجبريل حتى انتهى بي إلى سكان الهوى فحار بصري من مقامات المتعبدين وإذا بملائكة لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه وتعالى يسبحون الله لا يفترون طرفة عين.

ورأيت النجوم معلقات في السماء كتعلق القناديل في المساجد أصغر ما يكون منها أكبر من جبل عظيم في الدنيا.

فقلت يا جبريل ما هذه النجوم التي تبين لنا في الأرض صغاراً ومن ههنا كباراً، قال كذلك بحسب (الإناء) الهواء إذا كان موضوعاً فيه الماء كثيراً يبدو قليلاً[١٤].

ثم رأيت الشمس على عجلاتها والملائكة يجذبونها إلى موضع تدور أفلاكها ويقذفونها بالثلج قذفاً فقلت حبيبي يا جبريل ما هذا!

فقال: يا محمد لولا أنهم يقذفونها بالثلج لأحرقت الأرض ومن عليها وإذا مكتوب على جبهتها لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق وعمر الفاروق.

فقلت حبيبي يا جبريل من كتب هذا على وجه الشمس.

فقال يا محمد من قبل أن يخلق أبوك آدم بألف عام.

ثم نظرت فإذا بالقمر يدور في أفلاكه والملائكة موكلون به يسوقونه ثم أخذني جبرائيل عليه السلام وصعد بي إلى مرقاة فإذا هي فيها ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله وهم يسبحون الله عز وجلّ بلغاتهم وشيء يتناثر من أفواههم، قال يا محمد إن الله عزّ وجلّ يعطيك ولأمتك ممن يستر على أخيه المسلم عيبه أو خطيئته مثل هذا وأفضل فقلت لوجه ربي الحمد.

ثم صعدت إلى مرقاة أخرى فإذا أنا بملك من الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ وكل ملك منهم يتعجب من الملائكة الذين معه لعظم خلقتهم.

فنظرت فإذا بملك يده فوق السماء السابعة ورجله قد اخترقت الأرض السابعة وبين كل إصبع ألف ألف ملك متوجون بالأنوار وأجنحتهم مكللة بالأنوار، ولهم جذل بالتسبيح يخرج من أفواههم أحسن ما يكون من المسك الأزفر وهم يستغفرون فقلت حبيبي يا جبرائيل:ما هذا الذي يخرج من أفواههم.

قال يا محمد إن الله يعطيك ولأمتك مثل هذا وأفضل ولمن يتقي الله ويراقبه في الشهوات ويخافه في الخلوات.

فقلت لوجه ربي الحمد ثم إن جبرائيل أخذ بيدي وصعد بي إلى مرقاة أخرى وإذا أنا(١٥) بملك من الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ وعليهم صفاح من نور يكاد يخطف الأبصار من حسنهم وهم يسبحون الله ويستغفرون للمذنبين من أمتك يا محمد فقلت لوجه ربي الحمد ثم سلموا علي وحيوني بالسلامة، وما مررت على ملك من الملائكة ولا صف من الصفوف إلا ويبادرني بالسلامة والتحية والإكرام.

ثم أخذ جبرائيل بيدي وجعل يرقى بمرقاة حتى وقف بي بسماء الدنيا أسرع من طبق الجفن على الجفن وبين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام وهي من الفضة البيضاء سميت بالرفيعة(١٦).

فقلت حبيبي يا جبرائيل سماء الدنيا فضة قال نعم.

هذه قصة السموات السبع وما رأى فيها من العجب (صلعم) من قدرة رب العالمين من الأرض الخضراء

قال: إن سماء الدنيا على جبل قاف(١٧) وهو جبل أخضر مما اشتدت خضرته ترونه أخضر أزرق قائماً إن جبرائيل قرع باب السماء الأولى فنودي: من بالباب:

فقال جبرائيل: أنا.

فقالت الملائكة: ومن معك

فقال: هو الذي أشرقت السماء من نوره، معي محمد حبيب الله (صلعم)، قال: فسمعت الملائكة يهنىء بعضهم بعضاً وهم يقولون: صلى الله على محمد ورحم أمته الكريمة[١٨]، مبعوث خير الأنام إلى أمته ثم فتح الباب وصعدجبرائيل وأصعدني معه وإذا كل ملك منهم قائمون وراكعون ومنهم ساجدون، وإذا أنا بملك عظيم الخلقة أكبر ما يكون راكباً على فرس من نور وعليه قطيفة أرجوانية وعن يمينه خمسون ألف ملك من الملائكة.

فقلت: أخي يا جبرائيل: من هذا

فقال: يا محمد هذا إسماعيل صاحب السماء الدنيا وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو مترد برداء من نور وهو موكل بسبعين ألف ملك مسومين مكللين بالنور والجوهر، بيد كل واحد منهم حربة من نور وهم جنود الله سبحانه وتعالى، إذا عصي الله أحد في الأرض ينادون:

إن الله عزّ وجلّ قد غضب على فلان فيغضبون لغضبه وإذا استغفر العبد وتاب تنادي الملائكة: إن الله عزّ وجلّ قد رضي على فلان فيرضون عنه.

ورأيت الملائكة تنقل أعمال العبد إلى إسماعيل وهو يرفعها إلى الله عزّ وجلّ، قال النبي (صلعم) يا جبرائيل من هذا؟ فقال: إسماعيل خازن السماء الدنيا أدن منه وسلم عليه قال: فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وهنأني بالكرامة من الله ثم دنوت إلى الأمام فرأيت نهرين يطردان فقلت ما هذان النهران، يا جبرائيل، قال: هذان النيل والفرات عنصرهما (في الجنة) ثم مرَ بي فإذا نحن بنهر آخر على حافته قباب من اللؤلؤ والزبرجد وأبارق من فضة كعدد نجوم السماء وإذا ماؤه أشد بياضاً من الثلج فضربته بيدي وإذا طينه مسك أزفر فقلت: ما هذا يا جبرائيل، قال هذا نهر الكوثر الذي أعطاك ربك سبحانه وتعالى، ثم تقدمت أمامي فنظرت وإذا أنا بشاب أحمر الوجه قاعد على كرسي من النور وحوله ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ يحدثهم وهم يحدثونه وفي وجهه أثر سواد فقلت يا جبرائيل من هذا؟ فقال: يا محمد هذا عيسى[١٩] بن مريم أدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فقلت:

يا أخي يا عيسى ما هذا الأثر الذي في وجهك؟ فقال: يا محمد هذه خلات زيّن الله بها وجهي، أبشر يا محمد فإن الخير فيك وفي أمتك من بعدك إلى يوم القيامة، وما من يوم إلا ويعرض علي أعمال أمتك وأخلصها فإني في كل

وقت أفرح بهم وأقول وأتعجب: كيف لا يعلمون ويكثرون بأعمالهم حتى يفرحوا غداً بأعمالهم وإذا نظرت إلى أعمال أمتي أحزن وأقول: يا ويلهم كيف لا يراجعون أعمالهم فيه ويعملون بالوحدانية والطاعة والإخلاص لله وحده لا شريك له، فقلت لوجه ربي الحمد، ثم تقدمت أمامي وإذا أنا بملك نصفه من الثلج ونصفه من النار له ألف ألف جناح في كل جناح ألف ألف رأس في كل رأس ألف ألف وجه، في كل وجه ألف ألف فم، في كل فم لسان يسبح الله تعالى بألف ألف تسبيحة يقول: اللهم يا من ألّف بين الثلج (والنار) ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين فتقول الملائكة آمين[٢٠].

قال رسول الله (صلعم) ثم رأيت عبرة للمعتبرين ملاك له[٢١] جناح من الثلج وجناح من نار ورقبته من نار ودرته من ثلج فلا الثلج يطفىء النار ولاالنار تذيب الثلج، فقلت: من هذا يا جبرائيل، فقال: هذا الملك الموكل بأكناف السموات وهو أنصح الملائكة لك، قدمني جبرائيل عليه السلام فصليت بملائكة السماء الدنيا ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وفي المعنى أنشد (الشاعر):

قام الحبيب يصلي والخليل ورا عيسى وموسى خلفه مؤذنا[٢٢]
وكبر في ذاك[٢٣] المقام مهللا وقال مقالا صادق القول معلنا
وقام بهم والكل من خلفه غدا يقول له أنت النبي فلك الهنا

قال النبي (صلعم)ثم أخذني جبرائيل بيدي وصعد بي إلى السماء الثانية وبينها وبين السماء الدنيا خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك في أسرع من طرفة عين وإذا هي سماء من حديد لا وصل فيها ولا فصْل يقال لها ديمون[٢٤] (الماعون) فاستأذن جبرائيل.

مالي أراه[٢٥] إذا نظر عن يمينه يفرح ويبتسم وإذا نظر عن شماله يحزن ويبكي قال جبرائيل: يا محمد هذا أبوك آدم عليه السلام، إن الله تعالى قدم له الجنة عن يمينه والنار عن شماله فإذا نظر إلى الجنة فرح وإذا نظر إلى النار يحزن ويبكي، أدن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وقال: أهلاً وسهلاً بالولد الصالح والنبي الناصح، أبشر يا محمد، فإن الخير فيك وفي أمتك من بعدك إلى يوم القيامة، ثم أخذني وأقعدني في حجره وقبل ما بين عيني.

ورأيت مُن الملائكة راكبين على خيول مسومة من نور متقلدين بسيوف من نور فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل فقال هؤلاء من الملائكة خلقهم الله تعالى لنصرة الإسلام جنوداً إلى يوم القيامة، ثم أذن جبرائيل وتقدم وأقام الصلاة وقدمني فصليت بملائكة السماء الثانية ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وأنشد في المعنى:

مليح سواد الليل مرخى رواقه	وسار به جبريل والنور مشرقا[٢٦]
وغارت بدور منه ثم تغيبت	فلما بدا معناه في الكون اشرقا
رأيت عليه حمرة طاب عرفها[٢٧]	فعطرت الأكوان غرباً ومشرقا
وراقب[٢٨] الحي إناء الليل ومبعدا	فياحب من ساق لمحبوبه سقا
فإن كنت ملوعاً لحجرة حية	فسارع إلى أوطانه تجد الرقى

قال النبي (صلعم) ثم عرّج بي جبرائيل إلى السماء الثالثة في أسرع من طرفة عين وبينها مسيرة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فاستأذن جبرائيل فقالت الملائكة من هذا الذي معك قد أشرقت السموات بنور وجهه فقال جبرائيل هذا محمد حبيب الله.

قال النبي (صلعم) فسمعت الملائكة يهني بعضهم بعضاً ويقولون صلى الله عليه وسلم ورحم أمته ففتح لنا الباب وصعد جبرائيل وأصعدني معه فنظرت فإذا هي من نحاس يقال لها المزينة وفيها ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ورأيت فيها ملكاً عظيم الخلقة وهو على مائة ألف ملك ورأيت فيها شيخاً وشاباً فقلت يا أخي يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال يا محمد هذان داوود وسليمان عليهما السلام أدن منهما وسلم عليهما فدنوت منهما وسلمت عليهما فردا علي السلام وقاما وهنآني بالكرامة من ربي.

ورأيت فيها ملائكة معهم ألوية خضر فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟

فقال هؤلاء ملائكة ليلة القدر وشهر رمضان يصلون مجالس الذكر ويوم عرفات ومجالس الشهداء واجتماع الجماعة ويسلمون على أهل صلوات الليل، ونظرت أمامي وإذا أنا بغلام شاب وهو جالس على كرسي والنور قد أشرق من وجهه وإذا صورته كالقمر ليلة البدر فقلت يا جبرائيل من هذا الشاب، فقال هذا ابن يعقوب[٢٩] عليهما السلام فضله الله بالحسن والجمال كما فضل القمر

على سائر النجوم فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: مرحباً بسيد الخلق وحبيب الحق قال لي جبرائيل عليه السلام: تقدم وصلِ ركعتين بملائكة السماء الثالثة على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام فتقدمت وصليت بهم ركعتين.

قال النبي (صلعم) ثم ارتقى جبرائيل إلى السماء الرابعة وأنا معه في أسرع من طرفة عين وبينهما خمسماية عام وسمكها مثل ذلك فاستأذن جبرائيل فقالوا: من بالباب؟

فقال: أنا جبرائيل،

فقالت الملائكة: ومن هو الذي معك، قد أشرقت من نوره السماء؟

قال معي محمد حبيب الله قال: فسمعت الملائكة يهنىء بعضهم بعضاً ويقولون صلى الله على محمد ورحم أمته الكريمة مبعوث إلى خير أمة، مرحباً يا جبرائيل وبمن معك ولنعم المجيء جئتنا ففتحوا لنا الباب ودخلنا فإذا هي سماء من زبرجد يقال لها الزهراء[٣٠]، ورأيت رجلاً على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع فقلت يا جبرائيل من هذا؟ قال هذا إدريس[٣١] عليه السلام قد رفعه الله مكاناً علياً من فوقه ثلاث سموات ومن تحته ثلاث سموات وهو في مكان عليّ، أدن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علينا السلام وبشرني واستغفر لي ولأمتي.

ثم نظرت أمامي فرأيت ملكاً عظيم الخلقة هيب المنظر جالساً على كرسي من نور مكتوب بين عينيه سطران يزهران: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ وبين يديه ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ وهم يسارعون من خلفه وقدامه قد اخترقوا تخوم الأرض السابعة، وعن يمينه لوح وعن شماله شجرة عظيمة فخفق فؤادي واضطربت ركبتاي وطار عقلي وذُهلت.

فقال جبرائيل: يا محمد لا تخف ولا تفزع منه أتدري من هذا فقلت لا والله؟

قال: هذا هدام اللذات[٣٢] ومفرق الجماعات ومخرب الدور ومعمر القبور وميتم الأولاد ومرمل النساء ومفجع الأحباب ومغلق الأبواب ومسود الأعتاب

وخاطف الشباب هذا ملك الموتى هو ومالك[٣٣] خازن النار[٣٤] لا يضحكان إلى يوم القيامة، أدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام، فقال جبرائيل عليه السلام: لم لا ترد السلام يا عزرائيل[٣٥] على سيد الخلق وحبيب الحق محمد (صلعم) فلما سمع عزرائيل كلام جبرائيل وثب[٣٦] قائمًا على قدميه اعتذاراً اليَّ مني وهنأني بالكرامة من ربي سبحانه وتعالى وقال لي: إبشر يا محمد إني أرى الخير فيك وفي أمتك من بعدك إلى يوم القيامة[٣٧] إن شاء الله تعالى فقلت يا أخي عزرائيل هذا مقامك قال نعم منذ خلقني الله عزّ وجلّ إلى قيام الساعة، قلت وكيف تقبض الأرواح وأنت في مكانك هذا، قال عزرائيل اعلم يا محمد أن الله أيدني بخمسمائة من الملائكة فإذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه وانقضت مدة حياته أرسلت إليه أربعين ملكاً يعالجون روحه من العروق والعصب واللحم والدم ويقبضون على الروح من رؤوس الأنامل وينقلونها إلى الركب ويريحونه ساعة ثم ينقلونها إلى الحلقوم فيقع في الغرغرة فآتي أنا لها أنسلها كالشعرة من العجين، وإذا انفصلت من الجسد جمدت العينان لأنهما يتبعان الروح حتى إذا بلغت الروح الحلقوم فأقبضها بحربتي هذه وإذا بيده حربة من نور وحربة من سخط فالروح الطيبة أقبضها بحربة النور وأرسلها إلى عليين في السماء السابعة، وأما الروح الخبيثة من جسد خبيث أقبضها بحربة السخط وأرسلها إلى سجين، قلت وما سجين قال هي صخرة سوداء مظلمة تحت الأرض السابعة فيها أرواح الكافرين، قلت وكيف تعرف إذا حضر أجل العبد؟.

قال يا محمد ما من أحد من ولـد آدم إلا وله بابان باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله وهذه الشجرة التي عن شمالي ما عليها ورقة إلاّ عليها إسم رجل من بني آدم من ذكر وأنثى صغير وكبير حر وعبد حتى إذا قرب أجله إصفرت الورقة التي كتب عليها إسمه أقبض روحه على الباب الذي ينزل منه رزقه ويسود إسمه في اللوح فأعلم أنه مقبوض بأمر الله تعالى فأنظر إليه فيرتعد منه جسده ويوعك قلبه من هيبة فيقع على فراشه مريضاً فأرسل إليه أربعين من الملائكة فيعالجون روحه وذلك قوله تعالى: «حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون»[٣٨] يعني أعوان ملك الموتى.

قال: ويهبط إلى العبد ملكان عظيمان من السماء ويقعد الواحد عن يمينه

والثاني عن شماله، فينادي الموكل بعمله فيقول: أيها العبد عظم الله أجرك في نفسك فقد طويت صحيفتك بعملك فلا يعود لك عمل إلى يوم القيامة يعني لا من حسنة ولا سيئة وينادي الملك الآخر وهو الموكل على رزقه أيها العبد عظم الله أجرك في نفسك قد طويت صحيفة رزقك إلى يوم القيامة، فعند ذلك يشخص العبد ببصره إلى السماء فتصفر الورقة بذلك فإذا نظر إليها بكى فسقطت الورقة وانغلقت الأبواب فلا عمل يعود ولا رزق ينزل فقلت يا حبيبي يا عزرائيل تقبض الأرواح كلها قبضاً واحداً، قال: لا يا محمد إذا كان العبد من أهل السعادة أرسلت إليه ملائكة الروح يعالجون روحه علاجاً رفيقاً ويجذبونها جذباً خفيفاً حتى إذا! بلغت الحلقوم فبردت العيون عن روحه فأمد يدي من ههنا فأقبض روحه بكفي وأرفعها بيدي نحو الشفيق الرفيق وهو الله سبحانه وتعالى رب السماوات والأرض فإذا النداء من العلى أن اقذفوها في عليين(٣٩) فلا أدري بعد ذلك ما يكون منها.

وإذا كان العبد من الشقاوة أرسلت إليه ملائكة السخط والغضب فيجذبون روحه جذباً شديداً حتى إذا بلغت الحلقوم تبردت منه العيون فأمد يدي من ههنا فأقبضها قبضاً شديداً، فإذا صارت روحه بكفي رفعت يدي نحو الله الشفيق الرفيق وهو سبحانه وتعالى فإذا النداء من العلى أن اقذفوها في سجين فما أدري ما يكون من روحه أبد الآبدين.

فقلت يا حبيبي ·يا عزرائيل: إكشف لي عن الصورة التي تقبض بها الأرواح فقال: يا محمد لم أُأمر بذلك فإذا النداء من قبل الله عزّ وجلّ أن أعط حبيبي ما سألك فوعزتي وجلالي وعلوي في مكاني وعظمتي وسلطاني لولا محمد ما خلقتك ولا خلقت أرضاً ولا سماء ولا جنة ولا ناراً ولا إنساناً ولا جاناً فعندذلك قام عزرائيل من مكانه فنظر النبي (صلعم) فإذا الدنيا بحذافيرها بين يديه كالقصعة بين يدي الرجل وإذا الخلائق بين عينيه وأن من في السموات ومن في الأرض من المياه والعيون لكانت في نقرال(٤٠) إبهامه كجرعة واحدة فقلت يا حبيبي يا عزرائيل لا تريد أمتي جهنم ولا عذاب غيرها وكيف لأمتي هذا، انتظر معونتك ومساعدتك يا عزرائيل. وله ناصية أنصع من البرق الخاطف سبعين ضعفاً، فقلت يا عزرائيل إرجع إلى مقامك والصورة التي كنت فيها فقد خفق قلبي ثم إن جبرائيل أمسك وقبلني بين عيني فرجعت إليَّ روحي

ثم التفت إلي جبرائيل وقال يا محمد أما الذي بعد الموت (فهو) أعظم من هذا وأشد من الموت ومن عزرائيل فقلت يا حبيبي يا جبرائيل وما بعده؟فقال: يا محمد الهول والمطلع العظيم في القبر وهما أنكر ونكير[٤١] عليهما السلام فإذا هبطا علـى العبد أشرف ذلك الوقت على وادٍ لا يعلم أحد قعره إلا الله عزّ وجلّ، فيه حيات مثل الرماح الطوال وغلظهـا مثل أعناق الإبل سبعين مرة فاتحة أفواهها، وعقارب مثل البغال الدهم سبعين مرة فاتحة أفواهها تريد أن تهوي به في النار وفي جهنم وتريد أن تبتلعه ويريد (لو) أنه تهوي به في النار، وفي جهنم وادٍ لا يدرك قعره أحد ولا يلحق طرفه إلا الله تعالى فذلك هو الهول والمطلع.

قلت يا أخي يا جبرائيل ما أنكر ونكير؟ فقال يا محمد إذا كان العبد من أمتك وحسي[٤٢] عليه التراب وكثر عليه الكفوف وحصل هو وعمله من خير وشر وانصرف عنه المشيعون وبقي وحيداً فريداً فهنالك يهبط عليه من السماء ملكان أغلظان أسودان أصواتهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف يخرج من منخاريهما شيء من الدخان لو أطلق من ذلك الدخان على الدنيا مثل ما يخرج من خرم الإبرة لأظلمت الدنيا ومن عليها، ثم يقعدانه ويقولان له: يا فلان اعرف ما تنطق به واعلم أنك قدمت وفارقت الأحباب والأقارب والأهل والأولاد ولبس الثياب وقد مضت الدنيا عنك ولذتها وهذا قبرك ولحدك وبيتك فاعقل على ما تسمع ثم يقولون له: يا عبد الله من ربك؟ وما دينك؟ وما إمامك؟ وما قبلتك؟ فإن كان من أهل السعادة فيقول: الله ربي والإسلام ديني والقرآن إمامي والكعبة قبلتي ومحمد (صلعم) نبي ورسولي وإبراهيم أبي والمسلمون أخوتي وأنا وأنتما على قول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فيرددها عليهما ثلاث مرات فمن ثبته الله بالقول الثابت فيقولان له صدقت يا عبد الله ثم يفتحان له باباً عند رجليه من النار ويقولان له: أنظر، ما صرف الله عنك وما أنجاك منه إلا بعمل الخير ثم يفتحان له عند رأسه باباً إلى الجنة فيدخل عليه من ريحها ومسكها ويفرشان له من فراش خدرها فيدخل عليه كل ريح طيب وشيء أحب إليه من قيام الساعة، فإذا قامت الساعة قام من قبره ودخل الجنة بغير حساب.

وإذا كان العبد من أهل الشقاوة فيسألانه عن دينه وعن ربه وعن نبيه فعند ذلك يدخل معه عمله أسود مظلمًا فيسود منه قبره فإذا نظر إليهما أخذته

رعبة وفزع وهيبة فيقول لهما لا أدري ولا أعلم فيقولان له قد علمنا أنك تقول ذلك قال فيرفعان أيديهما فيضربانه على رأسه بمقمع من حديد والمزربة التي في أيديهما لو اجتمع أهل الأرض جميعاً على أن يقدروا يحركونها لم يقدروا على ذلك، فعند ذلك يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض جميعاً لصعقوا كلهم من عزم ذلك الصراخ، يا محمد لا بد لكل امرىء في قبره من حساب وعذاب، فلا يزالون يفعلون كذلك ثلاث مرات حتى تدخل عظامه بعضها في بعض ثم يفتحان له باباً إلى النار فيدخل عليه من زفيرها ونارها وعذابها وحياتها وعقاربها فيعذب بأنواع العذاب إلى يوم القيامة، وليس شيء أبغض عليه من قيام الساعة فيقوم من قبره إلى النار.

اللهم إنّا نسألك أن تهوّن علينا وعلى الحاضرين سكرات الموت وما قبل الموت وما بعد الموت إنك على كل شيء قدير[٤٣].

قال النبي (صلعم) ثم ودعته وتقدمت أمامي قليلاً وإذا أنا برجل صبوح الوجه عزيز العقل فلما رآني ضحك مبتسمًا فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ قال هذا أخوك هارون عليه السلام فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وهنأني بالكرامة من ربي عزّ وجلّ وقال لي: أبشر يا محمد إني أرى فيك الخير كله وفي أمتك من بعدك إلى يوم القيامة، واعلم يا محمد أن أخاك جبرائيل يرفعك إلى الحق ويسودك على خلقه ويعطيك على عباده فقلت له يا أخي يا هارون ما قعودك ههنا، قال: يا محمد أنظر إلى أعمال بني آدم فما أرى أجمل ولا أكمل ولا أنور ولا أزهر ولا أبهى ولا احسن ولا أرجح ولا أزكى ولا أتقى ولا أطهر ممن يقول:[٤٤] لا إله إلا الله محمد رسول الله فطاب قلبي وحمدت ربي عزّ وجلّ فقال جبرائيل عليه السلام: تقدم وصل ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وأنشد في المعنى يقول:

قل ما تشاء فقولك المقبول ... أنت الحبيب ووصلك المأمول
إسمع وقل ما شئت يا خير الورى ... فلك الهنا ولك المنى والسول
يا عاشقين تحدثوا بصفاته ... وتلذذوا بهدى الحبيب وقولوا
الله من هذا المقام مقامه ... لم لا يسير إلى حماه وصول

قال النبي (صلعم): ثم ارتقى بي جبرائيل إلى السماء الخامسة أسرع من

طرفة عين فطرق الباب فقالوا: من في الباب؟ فقال: جبرائيل.

فقالوا: ومن معك؟ الذي أشرقت السماء من نور وجهه؟

فقال معي محمد حبيب الله قال النبي (صلعم): فسمعت الملائكة يهنيء بعضهم بعضاً ويقولون صلى الله على محمد ورحم أمته الكريمة مبعوث إلى خير أمته ففتحوا لنا الباب فدخلنا فإذا هي سماء من ذهب أحمر اسمها هيموم، ثم سرت فيها قليلاً فرأيت باباً مغلقاً عليه سطران، فقال لي جبرائيل يا حبيب الله تقدم واقرأهما قال فنطقت الحروف له فتقدمت وإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما قبلته سقط القفل وانفتح الباب بقدرة الله تعالى ونظرت إلى أسفل تخوم الأرض السابعة السفلى، فنظرت فيه ورأيت منه السماء السابعة إلى العرش، وإذا أنا بملك عظيم الخلقة هائب المنظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب المراس بين عينيه عقدة لو أشرف على أهل الأرض لصعقوا عن آخرهم.

اللهم بحق إسمك العظيم ونبيك الكريم لا ترنا وجه مالك خازن النار ياذا الجلال والإكرام يارب العالمين.

هذه قصة سيدنا مالك خازن النار عليه السلام قصّها النبي (صلعم) عن أهل جهنم وما فيها من العذاب. قال النبي (صلعم) فنظرت إلى الملك وإذا هو جالس على كرسي من نار عليه ثياب من نار وهو يقطع ثياباً من نار وما رأيت أعظم منه خلقة جالساً على تلك السرير وهو كالح الوجه شديد البطش ظاهر الغضب أزرق العينين هائل الصوت لو أشرف على أهل الدنيا لماتوا من الفزع منه ولغارت البحار وتزلزلت الجبال وتهدمت، قال النبي (صلعم) من هذا الذي اقشعر منه جلدي وارتعدت منه فرائصي وخفق فؤادي وتلجا لساني، فقال يا حبيب الله هذا مالك خازن النار خلقه الله تعالى من غضبه ولم يزل منذ خلقه الله لا يزداد إلا غضباً على أعدائه هذا وملك الموت لا يضحكان أبداً إلى يوم القيامة، أدن منه وسلم عليه، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام، فقال جبرائيل يامالك لم لا ترد السلام على حبيب رب العالمين؟ وهو أعزّ الخلق على الله وأكرمهم عليه وهو نبي الرحمة، قال فلما سمع الملك ذلك نهض قائماً على قدميه وقال: الله الله العزيز يا حبيب الله، فقال النبي (صلعم) يا مالك

أرني جهنم، فقال مالك لم أؤمر بذلك يا محمد، يـا محمد لأني خلقت من الغضب وجبلت على النقم[٤٥] وطبعت على السخط فإنني غضبان إلى يوم القيامة ويوم ازداد غيظاً وغضباً وحمقاً على أعداء الله ورسوله فإذا كان يوم القيامة جاءت عبدة الأوثان وعبدة الأصنام وعبدة البهائم والشمس وعبدة القمر، ودفع أهل الكبائر من أمتك فمنهم من كان لا يقرأ القرآن ومنهم من كان لا يصوم شهر رمضان ويشربون الخمر ويزنون ويفسقون ويرتكبـون الذنـوب والمعاصي ولا يخافون[٤٦] من علام الغيوب ولم يراقبوا الملك الـدنيا ولم يتـوبوا ولم يـطلبوا لأنفسهم النجاة من النار فإني أعذبهم بأنواع العذاب ألواناً ألواناً، قلت يا مالك اكشف لي عن الطبقة العليا حتى أنظر من فيها من المساكين والأمم حتى إذا رجعت أحذر أصحابي فقال: يا محمد لم أؤمر بذلك فبينما أنا كذلك أخاطب الملك وإذا النداء من العلى من قبل الله تعالى يا مالك أعطِ حبيبي محمد ما سألك فوعزتي وجلالي وعظمتي وسلطاني لولا محمد (صلعم) ما خلقتك ولا خلقت جنة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً ولا انساً ولا جاناً فعند ذلك كشف لي عن الطبقة العليا وقذف منها مثل خرم إبرة فخرج منها شرار كالقصور العاليات كأنها جمال صفر وخرج منها دخان لو أطلقوا من ذلك الدخان مثل خرم إبرة لأظلمت الأرض ومن عليها ثم نظرت إلى جهنم وإذا فيها سبعون ألف لون من العذاب ولا بيت ولا سلسلة ولا صندوق ولا تابوت ولا وادٍ إلا اسم صاحبه مكتوب عليه قال النبي (صلعم) فلما نظرت إليها هان أمرها وإذا هي سوداء مظلمة مدلهمة معتمة مقتحمة، فقد قيل نار الدنيا لها ضوء ونور كأنها غسلت في بحر القدرة سبعين مرة غسلها جبرائيل بأمر الجليل سبحانه وتعالى حتى صار لها شعاع يضيء، قال: فكشف الله عن بصري وثبت فؤادي فرأيت فيها سبعين ألف بحر من غسق وسبعين ألف بحر من قطران يغلي وسبعين ألف بحر من رصاص مذوب على كل بحر ألف مدينة من النار في كل مدينة سبعون ألف قصر من نار، في كل قصر سبعون ألف تابوت من نار، في كل تابوت سبعون ألف صندوق من نار في كل صندوق سبعون ألف صنف من العذاب، ورأيت فيها سبعين ألف حجرة وسبعين ألف بحر من الزمهرير ورأيت فيها حيات كمثل النخلات الطويلة وعقارب كمثل البغال الدهم. ورأيت فيها نساء باكيات محزومات مكبوتات على وجوههن ينادون بالويل والعويل ينادون فلا يجـابون ويتضرعون فلا يرحمون فقلت من هؤلاء يا جبرائيل قال هؤلاء اللواتي يتزيَّنَّ لغير

أزواجهن[٤٧] ورأيت فيها نساء عليهن سراويل من قطران وفي أعناقهن السلاسل والأغلال، فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال المستخفات بأزواجهن يقلن ما أشنع شكلك وما أقبح وجهك وما أنتن ريحك، ألم تعرف هذه الشقية بأن الذي خلقها وخلقه إلّه واحد فتبارك الله أحسن الخالقين.

ورأيت نساء قد أُحرقت وجوههن وخرجت ألسنتهن مدليات على صدورهن والنار تلهب عليهن، فقلت من هؤلاءيا جبرائيل؟ قال هؤلاء اللواتي يقلن لأزواجهن طلقني من غير سبب.

ورأيت رجالاً مكبوبين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة تضربهم بمقامع من نار فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال هؤلاء الذين يأتون الرجال والصبيان شهوة من دون النساء.

ورأيت رجالاً اسودت وجوههم والحيات مطوقات أعناقهم تلذعهم فتهتري لحومهم ثم يعودون خلقاً جديداً سوياً فقلت: من هؤلاءيا جبرائيل؟

قال هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم.

ورأيت فيها أقواماً بين أيديهم لحم خبيث ولحم طيب وهم يأكلون الخبيث ويتركون الطيب فقلت من هؤلاء يا جبرائيل: قال هؤلاء الذين تكون إمرأة حلال يتركها المرء ويميل إلى الحرام، وكذلك النساء من تكون مع زوجها بالحلال وترمي إلى الحرام.

ورأيت رجالاً ونساء ردت أقبالهم إلى أدبارهم وأدبارهم إلى أقبالهم ومقامع النار ترشقهم الملائكة على وجوههم تتجهم كلما ضرب أحدهم ضربة يلهب جسده ناراً فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟

قال: هؤلاء الذين يتكبرون على الناس بغير حق ألا ترى إبليس لما تكبر على آدم وقال أنا خير منه انقطعت أجنحته وخرج من رحمة ربه عزّ وجلّ[٤٨]، ورأيت فيها رجالاً ونساء في أسفل النار تدخل في أدبارهم وتخرج من أفواههم فقلت من هؤلاء ياجبرائيل؟

قال: هؤلاء الذين يتهمون الناس ويرمونهم بغير ما هم فيه.

ورأيت فيها نساء معلقات من شعورهن في شجرة الزقوم والحميم يصب عليهن فتهر لحومهن فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الغمازون والنمامون.

ورأيت رجالاً ونساءً يرمون بشهب من نار فتقع في أفواههم وأبصارهم وتخرج من أفئدتهم فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟

قال: هؤلاء الذين يشربون أدوية حتى يقتلوا أولادهم خوفاً من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم، ألم يعلموا ان الله هو يطعمهم وقال الله «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها».

ورأيت نساء مقيدة في قيود من نار قد تفتحت أفواههن ولهب النار يخرج من بطونهن فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟

قال: هؤلاء اللواتي يخرجن من بيوتهن بغير رضا أزواجهن في غير طاعة الله تعالى.

ورأيت فيها نساء تضرب الزبانية وجوههن ورؤوسهن بمقامع من حديد من نار وتشق أشداقهن بكلاليب من نار فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: هؤلاء يا محمد المغنيات الرفيعات الرافعات أصواتهن اللواتي يمتن من غير توبة.

ورأيت فيها نساء لابسات برؤوسهن ثياباً من قطران والحيات تنهشهن فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: النائحات بكراً ويعظمن ما نهى الله عنه ومتن من غير توبة، قال النبي (صلعم) النائحات إذا لم تتب قبل موتها تقمن يوم القيامة وعليهن سرابيل (سراويل) من قطران ودرع من جرب وقال (صلعم) إثنتان كفر الطعن في النسب والنائحات على الميت.

ورأيت رجالاً ونساءً في العسر ولهم دوي في بطونهم تدخل النار من أفواههم وتخرج من أدبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: هؤلاء الذين يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً.

ورأيت في جهنم رجالاً ونساءً يسقون من القيح والصديد كلما دخل في أجوافهم تمزقت جلودهم عن لحومهم ثم يعودون خلقاً جديداً سوياً فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا. قال الله تعالى الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس(٤٩).

ورأيت في جهنم رجالاً ونساءً رؤوسهم مغموسة في نار جهنم ويصب عليهم الحميم والزمهرير فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: هؤلاء الذين يلقون العداوة والفتنة بين الناس.

ورأيت النار وأهوالها وعذابها الشديد ورأيت أكثر أهلها من النساء ورأيت فيها نساء مسخت قروداً في النار سوداً كأنهن القطران فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟.

قال: هؤلاء الذين يصبغن شعورهن ويغيرن خلقة الله.

ورأيت فيها أهوالاً عظيمة فدخلني رعب شديد ثم انطبق الباب وعاد كما كان.

ورأيت السماء الخامسة وما فيها من الملائكة والعجائب. ثم إن الملائكة اصطفت صفوفاً ثم أقام جبرائيل عليه الصلاة والسلام وقدمني فصليت بملائكة السماء الخامسة ركعتين على ملة أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم ارتقيت إلى السماء السادسة أسرع من طرفة عين وبينهما مسيرة خمسماية عام وسمكها مثل ذلك وإذا هي سماء من الجوهر يقال لها الخالصة فاستأذن جبرائيل عليه السلام. فنودي من في الباب؟

فقال أنا جبرائيل فقيل ومن معك؟ الذي أشرقت بنور وجهه السماء؟

فقال: معي محمد (صلعم) حبيب الله.

فقالوا: مرحباً بك ومن معك.

قال النبي (صلعم) فسمعت الملائكة يهنىء بعضهم بعضاً ويقولون صلى الله على محمد ورحم أمته الكريمة مبعوث إلى خير أمة، قال: ففتحوا الباب فلما

سرت في السماء فنظرت فإذا أنا بملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى فرأيت فيها ملكاً عظيمًا لم أرَ مثله ولو أمره الله تعالى عزّ وجلّ أن يلقم السموات السبع والأرضين السبع والمخلوقات كلها ليلقمها لقمة واحدة كانت عليه أهون من بلع حمصات في فم أحدكم وهو يسبح الله تعالى ويقول في تسبيحه سبحانك ما أحلمك على خلقك، مكتوب بين عينيه سطران لا إلّه إلا الله محمد رسول الله (صلعم). ثم نظرت فإذا أنا بشاب جالس على كرسي من نور فقلت يا أخي يا جبرائيل من هذا؟.

فقال لي: هذا يحيى بن زكريا ما عصى الله طرفة عين ولا هم بمعصية قط، ورأيت في وجهه(٥٠) أثر سواد فقلت يا جبرائيل ماهذا الأثر الذي في وجهه؟.

فقال: يا محمد هذا من كثرة البكاء من خشية الله تعالى في دار الدنيا حتى أحرقت دموعه خده فقال جبرائيل أدن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وقام لي على قدميه وقال يا محمد أبشر فإني أرى الخير فيك وفي أمتك من بعدك إلى يوم القيامة فقلت لوجه ربي الحمد.

قال: ثم نظرت فرأيت رجلاً آدمياً طويلاً أقنى الأنف كثير الشعر كهلاً عليه مدرعة من الصوف الأبيض يتوكأ على عصاه يكاد شعره يغطي جسده ولحمه وله لحية إلى صدره، فقلت من هذا يا جبرائيل؟ قال هذا أخوك موسى ابن عمران عليه السلام فضله الله عزّ وجلّ بكلامه على الناس وجعله كليمًا، ادن منه وسلم عليه فلما دنوت منه وسلمت عليه نظر إلي وجعل يقول: تزعم بني إسرائيل إني أنا أكرم الخلق على الله تعالى فأنت والله أكرم مني على الله، أنت النبي الهاشمي القرشي المكي المدني الأبطحي، هذا الحبيب هذا الكريم هذا المعظم هذا المشرف هذا الممجد، هذا المحمود هذا المولود هذا أحمد، هذا ابن عبد الله بن عبد المطلب ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الناصح ثم دعا لي ولأمتي بالبركة وقال (صلعم) ثم التفت إلي وجعل يبكي بين يدي فقلت يا أخي يا موسى مم بكاؤك لما نظرت إلي؟.

فقال: يا محمد ألا يحق لي البكاء وإني أبكي حياء منك أما سمعت اليهود لعنهم الله كيف يكذبون علي ويقولون إني أنا قلت أنا خير منك، بلى والله أنت

خير مني وأمتك خير من أمتي وهي أكرم الأمم على الله تعالى يوم القيامة وقلت فد سألت ربي أن يجعلني من أمتك ثم أذن جبرائيل عليه الصلاة والسلام وأقام الصلوات وصليت ركعتين على ملة أبينا إبراهيم الخليل.

قال النبي (صلعم)؛ ثم ارتقى بي جبرائيل إلى السماء السابعة أسرع من طرفة عين وبينهما مسيرة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فنظرت فإذا هي سماء من ياقوت أحمر يقال لها الرفيعة[٥١] فاستأذن جبرائيل فقيل من بالباب؟

فقال أنا جبرائيل قيل ومن معك؟ الذي أشرقت السماء من نور وجهه؟.

فقال معي محمد حبيب الله فقالت الملائكة مرحباً بك وبمن معك قال النبي (صلعم) فسمعت الملائكة يهنيء بعضهم بعضاً ويقولون صلى الله على محمد ورحم أمته الكرام مبعوث إلى خير أمة، ثم فتح لنا الباب وصعد جبرائيل وأصعدني معه فنظرت وإذا بملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى عزّ وجلّ وهم يسبحون الله بلغات مختلفة، وإذا برجل ذي شيب ووقار وحوله رجال ألوانهم كلونه فقلت من هؤلاء؟ فقال لي: يا محمد هذا أبوك إبراهيم الخليل وأولاده[٥٣] من حوله إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام ادن منهم وسلم عليهم فدنوت منهم وسلمت عليهم وقالوا الحمد لله الذي رأيناك، مرحباً بالنبي الصالح والولد الناصح إني أرى فيك الخير وفي أمتك إلى يوم القيامة طوبى لمن صدقك وآمن بك وويل لمن كذبك وراغ عن شريعتك، وفي رواية ان النبي (صلعم) قال رأيت البيت المعمور في السماء السابعة وهو من ياقوتة بيضاء وهو تلقاء الكعبة شرفها الله تعالى وحوله قناديل مصطفة بعضها من ياقوت وبعضها من زبرجد أخضر وبعضها من لؤلؤ رطب وإذا بالملائكة يطوفون حوله فطفت معهم سبعاً وقلت للملائكة كم لكم تزورون[٥٤] هذا البيت؟ فقالوا من قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ أباك آدم عليه السلام بألفي سنة وهم يزورونه كل يوم مائة ألف وسبعين ألف ألف ملك لا ترجع النوبة لي ولهم إلى يوم القيامة ثم أذن جبرائيل عليه السلام وأقام الصلوات فصليت ركعتين على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وأنشد يقول :

دعاني والذي أهوى[٥٥] دعاني ‏ ‏ ‏ ونـاداني[٥٦] ومنه الوصل دان
وقال تريد ماذا قلت[٥٧] كلا ‏ ‏ ‏ أهم[٥٨] في سكرة طول الزمان

وانـظر نـظرة فبنـور [٥٩] عـين	أراك بها على قرب التداني[٦٠]
فقد لبى[٦١] عظيم الشوق مني	ولم يخطر سواك على لساني
ومذ ناديتني للوصل جهرا	أجبت وقد أتيت إليك ثانِ[٦٢]
فلاطفني حبيبي ثم داوى	فؤادي بالوصال[٦٣] وما جفاني
وعرفني طريق الله جهرا	فنلت[٦٤] القصد منه والأماني
فها أنا عبد ربي في مقام	حباني[٦٥] كل أسباب التهاني

قال صلى الله عليه وسلم ثم حملني جبرائيل على جناحه الأيمن ولم يزل سارياً بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فنظرت إليها فإذا هي أصولها من الذهب الأحمر وأغصانها من الياقوت وقضبانها من الدر المكنون والحلي والحلالي تميل ما بين الخافقين ويتناثر من ورقها المسك والعنبر وإذا بملك على غصن من أغصانها على سرير من درة بيضاء مثل الدنيا بأربعين مرة فلما رأيت ذلك الملك تبسمت من خلقته فسلمت عليه فرد علي السلام، قال النبي (صلعم) ثم تقدمت أمامي ونظرت فلم أرَ جبرائيل فناديت برفيع صوتي يا أخي يا جبرائيل في مثل هذا الملك يفارق الخليل خليله والأخ أخاه فلم تركني وتتخلف عني؟ فناداني جبرائيل يا محمد يعزّ علي أن أتخلف عنك وأفارقك ولكن والذي بعثك بالحق نبياً واصطفاك بالرسالة نجياً ما من أحد إلا له مقام معلوم ولو أن أحداً تجاوز مقامه لاحترق بالنور[٦٦].

قال النبي (صلعم) فلما قال لي هذه المقالة وضعت يدي على وجهي وأخذتني الرعدة والخوف فنهض إلي جبرائيل وضمني إلى صدره وكنفني[٦٧] بجناحه وقال لي لا تخف ولا تحزن إنما أعرج بك إلى ربك جلّ جلاله ليجتبيك ويحبك ويصطفيك فلما قال لي هذه المقالة خفف عني ما كنت أجده فبينما أنا كذلك وإذا النداء من قبله سبحانه وتعالى يا جبرائيل شجع حبيبي محمد (صلعم) فلما قال ذلك مضى جبرائيل إلى الجنة فاستخرج منها حصيرة من لؤلؤ وسجادة من السندس وقدم لي رفرفا وأجلسني عليه، وإذا النداء من العلي يا جبرائيل زج حبيبي محمد (صلعم) في النور قال فرفع جبرائيل بيده الرفراف وقال: سر بمحمد حبيب الله قال (صلعم) والرفراف يمر بي كالسيل بلا دعامة من تحته ولا علاقة من فوقه حتى خرق بي صفوف الملائكة. ثم تقدمت وإذا ببحر من نور أبيض وإذا أنا بملك على ذلك البحر لو اذن الله للطير المجد في

طيره أن يطير من منكبه الأيمن إلى منكبه الأيسر لم يصل إليه بخمسماية عام.

ثم زجّ بي في بحر من نور أخضر يتلألأ وإذا أنا بملك على ذلك البحر لو أذن الله له عزّ وجلّ أن يبتلع السموات والأرض ومن فيهن في لقمة واحدة لهان عليه ذلك لعظم خلقته ثم خرجت من ذلك البحر إلى بحر من نور أصفر وإذا أنا بملك على ذلك البحر وجميع ما خلق الله عزّ وجلّ في سمواته وأرضه لو وضع في كفه لكان كالخردلة الملقية في أرض فلاة. ثم خرجت من ذلك البحر إلى بحر من نور أسود يتلألأ هيبة فلما رأيت ذلك البحر خررت على ساحله ساجداً لله تعالى وناديت برفيع صوتي: يا مغيث المستغيثين ويا رجاء المؤمنين ويا إلّه العالمين ويا أنيس المستوحشين ويا رب العرش العظيم ويا إلّهي وسيدي ومولاي آنس وحدتي وأمّن رغبتي وأجب دعوتي ويسّر لي في هذه الساعة عبداً من عبيدك يلهمني ويؤنسني، وإذا النداء من ساحل البحر إلي: أقبل يا محمد يا أحمد. قال فأقبلت إليه وإذا أنا بملك عظيم الخلقة جالس على ذلك البحر يكيل الماء بمكيال ويزينه بميزان ويفرقه على السحاب فناديت السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله فأجابني وعليك السلام يا حبيب الله. فقلت من أنت من الملائكة رحمك الله قال أنا أخوك ميكائيل. فقلت يا أخي ميكائيل بالذي رفعني إلى هذا الموضع أريد منك أن تعرفني لم سميت ميكائيل ولم سمي عزرائيل ولم سمي جبرائيل ولم سمي إسرافيل فقال: يا حبيب الله أما كفاك الذي رأيت من العجب؟ حتى تسألني عن هؤلاء الملائكة في هذا المكان. قال النبي (صلعم) لوجه ربي الحمد والشكر يا ميكائيل، أعلم أن الله عزّ وجلّ بفضل منه ولطفه وكرمه وجوده وإحسانه أصعدني إلى هذا المكان فله الحمد والمنة والعظمة والحمد والكبرياء والخيرات وأنا يا أخي أحب إذا رجعت إلى الأرض وإن سألني أحد عن أخبار السموات أخبره عن قدرة الله عزّ وجلّ قال: صدقت يا محمد. أعلم إني سميت ميكائيل لأني موكل بالقطر والنبات أكيل الماء بمكيال وأزينه بميزان وأحمله للسحاب وأرسله حيث يشاء الله فقلت يا أخي يا ميكائيل فما الرعد وما البرق قال: يا حبيب الله الرعد إذا حملت السحابة الماء سلط الله عليه ملكاً يرسله إلى حيث يشاء الله تعالى قال: فيزجره فيحكي بعضه بعضاً فيقع له زجرة ووقعة فأضربه بسوطي فيخرج منه نور وهو البرق.

وإنما سمي جبرائيل[٦٨] لأنه أعطي الجبروت وهو صاحب الخسف والمسخ

والقذف والزلزال والصقيع وبه أهلك الله الأمم الخالية.

وإنما سمي إسرافيل لأنه ليس في الملائكة أشد منه شيئاً ولا أكثر منه أجنحة وريشا وهو صاحب الصور وإنما سمي عزرائيل لأنه موكل بقبض الأرواح. قال فسلمت عليه ومضيت عنه وهو يصلي عليّ ويدعو لي ولأمتي بالخير والبركة فلم أزل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهيت إلى إسرافيل عليه السلام وإذا هو قد نشر جناحه وقد سد الخافقين وقد بلغت أقدامه تخوم الأرض السابعة ورأسه تحت العرش وإذا له ألف ألف جناح في كل جناح ألف ألف وجه في كل وجه ألف ألف فم وفي كل فم ألف ألف لسان في كل لسان يسبح الله تعالى بألف ألف لغة لا يشبه بعضها بعضاً والعرش على كاهله والصور أثقاب بعدد أرواح الخلائق واللوح المحفوظ بين عينيه وعرض اللوح كما بين المشرق والمغرب، ونظرت إلى الصور فرأيته لو وضعت السموات والأرضين في الصور لما كانت إلا كحبة خردلة ملقاة في أرض فلاة ورأيت صوراً ملتقمة في فمه وقد وضع قدمه اليمنى بين يديه واليسرى وراءه وهو منحنٍ ينتظر متى يؤمر بالنفخة.

قال رسول الله (صلعم) فناديته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا إسرافيل قال وعليكم السلام يا حبيب الله، فقلت يا إسرافيل ما لي أراك في مثل هذا المقام؟ قال: يا حبيب الله هذا مقامي منذ خلقني الله عزّ وجلّ إلى يوم القيامة وإني أسمع كلام ربي سبحانه وتعالى، فقلت يا أخي يا إسرافيل كيف تسمع كلامه؟.

قال: اسمعه أشد من الريح العاصف ومن الرعد القاصف ومن البرق الخاطف.

قلت وما يقول سبحانه وتعالى: قال: يقول للشيء كن فيكون فما يلحق الكاف بالنون حتى يكون ما أراد أن يكون قال النبي (صلعم) فقلت يا أخي يا إسرافيل في أي موضع أنا؟.

قال: يا حبيب الله ارفع رأسك. قال: فرفعت رأسي وإذا بالعرش العظيم وجميع ما رأيته في السموات والأرضين وما تحتهن عند العرش كحلقة خاتم ملقاة في أرض فلاة وهكذا ينبغي أن يكون عرش ربنا تبارك وتعالى، ثم أبصرت أمراً عظيمًا لا تدركه الأفهام ولا تحويه الخواطر والأوهام تبارك تعالى ذو الجلال

والإكرام قال النبي (صلعم) فنظرت أمامي وإذا أنا بملك من الملائكة على صورة ديك إسمه دحيابيل عنقه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض كأعظم ما يكون من البياض وأجنحته خضراء ورجلاه من الذهب الأحمر وعرفه من العقيق الأحمـر وذنبه من المرجان ولعرفه شرف من المسك الأصفر وفي وسطه ملك قاعد على كرسي من نور والكرسي مد النظر على يمينه وشماله سطران مكتوبان لا إله إلا الله محمد رسول الله يا حبيبي إسرافيل ما هذا قال هذا ديك الدنيا أطلعه الله وقال يا معشر العابدين قوموا ثم يأخذ في التهليل والتسبيح إلى الثلث الثاني فيطلع طلعة أخرى فيخفق بجناحه ثم ينادي معشر المستغفرين قوموا ثم يأخذ في التسبيح والتهليل فإذا كان آخر الليل رجع وخفق بجناحيه فينادي يا معشر الغافلين قوموا إلى ذكر ربكم فحينئذٍ تسمعه ديوك الأرض فتصرخ لصرخته وإذا سكت سكتت بقدرة الله عزّ وجـلّ.

قـال النبي (صلعم) ثم تقدمت وإذا أنـا بصفوف أخـرى في تمتمتهم فابتسمت[٦٩] من عظم خلقهم وكثرة عددهم ومن اختلاف أجنحتهم فسلمت عليهم فردوا علي السلام بالإشارة وبأيديهم فقلت يا إسرافيل ما بال هؤلاء يردون السلام بالإشارة؟.

فقال: يا محمد لا يتكلمون ولا يكلم بعضهم بعضاً منذ خلقهم الله عزّ وجلّ مخافة أن يشتغلوا عن التسبيح والتقديس ومع ذلك ما عرفوك يا محمد لو عرفوك لأجابوك ثم نادى إسرافيل يا معشر الروحانيين هذا محمد حبيب الله يسلم عليكم فلم لا تردون عليه السلام فلما سمعوا كلام إسرافيل أسرعوا بالإجابة والتسليم وهنأ بعضهم بعضاً وقالوا صلى الله على محمد ورحم أمته الكريمة مبعوث إلى خير أمة قال النبي (صلعم) فبينما أنا كذلك وإذا بملائكة الكرام الروحانيون وهم حملة العرش فقال إسـرافيل ادن منهم وسلم عليهم فدنوت منهم وسلمت عليهم فردوا علي السلام وهنأوني بالكرامة من اللهعزّ وجلّ فبينما أخاطب الملائكة ويخاطبونني وإذا بالنداء من فوق رأسي الصلاة والسلام عليك يا محمد قال فرفعت رأسي وإذا أنا بملك عظيم الخلقة وهو أشد بياضاً من الثلج[٧٠] بالخضرة وقدامه سبعون ألف ملك مثل صورته وشكله فعانقني وقبلني قال سر يا أكرم الخلق على الله فسرت مع الملائكة وهم عن يمين وعن شمال وبين يدي ومن ورائي وهم يعظمون ويكرمون.

وقال ﷺ: ثم تقدمت إلى الحجب ثم إلى السقف المرفوع علوه ما بين العرش والثريا وخلق الله عزّ وجلّ فوق السقف المرفوع بحراً عظيمًا واسمه المسجور وملأه ملائكة طول كل واحد منهم مسيرة ألف عام بيد كل واحد حربة من نور طولها مئتا عام ووكل الله بهم ملكاً يقال له كوكبياليل(٧١) لا يصف عظمته ولا قوته إلا الله تعالى ولو أمر الله عزّ وجلّ هذا الملك أن يبلع السموات والأرض وما دونهما في ساعة واحدة لابتلعهما،وهما عنده كحبة خردل في أكبر فلاة من الأرض فسبحان من هو على كل شيء قدير.

وإذا فوق هذا الملك سبعون ألف حجاب(٧٢) من حديد غليظ كل واحد منهم ألف سنة ليس لهذه الحجب منتهى في الطول والعرض ثم خلق الله عزّ وجلّ سبعين ألف حجاب من الفضة غلظ كل حجاب ألف عام ووسعه أوسع في العرض والطول وخلق مثل هذه الحجب ملائكة ثم خلق فوق ذلك سبعين ألف حجاب من الذهب بين كل حجاب وحجاب ألف عام وملأها ملائكة وعرض هذه الحجب وطولها لا يصفه إلا الله عزّ وجلّ فلا إله إلا الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. ثم نظرت إلى سبعين ألف حجاب من البرق وفوق ذلك سبعون ألف حجاب من الرعد ثم خلق الله عزّ وجلّ فوق ذلك سبعين ألف حجاب من الياقوت الأحمر غلظ كل حجاب منها ألف عام ليس لتلك الحجب منتهى لا في الطول ولا في العرض وملأها سكاناً من الملائكة يسبحون الله ويقدسونه ثم خلق الله عزّ وجلّ فوق ذلك سبعين ألف جبل من الذهب الأحمر طول كل جبل ألف عام وعرض كل جبل ألف سنة على كل جبل سبعون ألف ألف لؤلؤة من فضة بيضاء أسنانها من الياقوت الأحمر مكتوب على كل لؤلؤة بالنور لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومن الجبل إلى الجبل ألف عام قال (صلعم) ثم تقدمت فنظرت إلى الكرسي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ غلظ كل قائمة من قوائم الكرسي عشرون ألف سنة وخلق الله بين العرش والكرسي اللوح المحفوظ وعرضه كعرض السماء والأرض وطوله مثل ذلك وهو من الزمرد الأخضر فيه علم الله عزّ وجلّ ما كان وما يكون إلى الأبد وجعل اللوح المحفوظ مقابل العرش من أربعة أنوار خالصة واسمه المجيد وجعل العرش ثلاثمائة وستين سنة وجعل بين قائمة سبعين ألف لبنة من الذهب الأحمر وخلق على كل لبنة ألف مدينة وخلق في كل مدينة

سبعين ألف قصر في كل قصر سبعين ألف صف من ملائكة الرحمة والذي خلقه الله وما دون العرش كحبة ملقاة في أرض فلاة وذلك من العرش وعرضه ووسعته سبحان من استوى على العرش ليس له منتهى وله الجلال والقدرة والوحدانية والفردانية والصمدانية والربانية وهو الأول والآخر والظاهر والقابض والباسط والخالق والرازق ليس له شبيه ولا في ملكه شريك يداه مبسوطتان بالرحمة احتجب بعظمته بحجاب القدرة عن نواظر العيون سميع بصير حكيم عليم عادل علي كريم تبارك في جلاله وعظم شأنه وعلو سلطانه خلق كل شيء فقدره تقديراً وأحصاه عدداً كبيراً وصغيراً.

ثم تقدمت نحو العرش فإذا ضرب ما دونه بسبعين ألف حجاب، غلظ كل حجاب سبعون ألف عام وطوله لا يعلم ما هو إلا الله تعالى الذي خلقه من نور يتلألأ وفي الحجاب ملائكة سماهم الله المقربين صفوفاً، كل صف عرضه ألف عام وطوله لا يعلمه إلا الله الذي خلقه طول كل ملك منهم عشرة آلاف سنة وعرضه خمسة آلاف سنة وخلف ذلك الحجاب سبعون ألف صف من الملائكة منهم قائمون ومنهم قاعدون ومنهم راكعون ومنهم ساجدون وسماهم الله الصافين والراكعين والساجدين والروحانيين والكروبيين والحامدين على صورة ابن آدم وخلق (حول) أولئك الملائكة حية محيطة بهم من الفضة البيضاء ورأسها من الذهب الأحمر وعينها من الياقوت وهي محلقة على العرش مثل حلقة ولهذه الحية سبعون ألف جناح من الزمرد الأخضر وعلى كل جناح سبعون ألف ملك، بيد كل ملك لؤلؤة من النور يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ولو أمر الله عزّ وجلّ لهذه الحية أن تبلع السموات والأرض لابتلعتها في ساعة واحدة وسماها الأية الكبرى.

قال النبي (صلعم) فلم يسر بي حتى اخترقنا سبعين ألف حجاب من ياقوت أحمر وسبعين ألف حجاب من الزمرد الأخضر وسبعين ألف حجاب من الاستبرق وسبعين ألف حجاب من النور وسبعين ألف حجاب من المسك وسبعين ألف حجاب من العنبر وسبعين ألف من ملكوت وسبعين ألف من جبروت وسبعين ألف حجاب من الكمال وسبعين ألف حجاب من الاستبرق وما بين كل حجاب وحجاب خمسمائة عام.

قال صلى الله عليه وسلم ثم انتهيت إلى حجاب الدخان ومن حجاب

الدخان إلى حجاب الظلمات إلى حجاب النور إلى حجاب الثلج إلى حجاب من برد إلى حجاب من الملك إلى حجاب من العزّ إلى حجاب الجلال إلى حجاب الكمال إلى حجاب القهر إلى حجاب العظمة إلى حجاب الوحدانية إلى حجاب الصمدانية إلى حجاب البقاء إلى حجاب العلى إلى حجاب الكبرياء إلى حجاب الخضرة.

قال (صلعم) فلمّا وصلت إلى حجاب الخضرة نظرت إلى حجاب الفردانية وإذا أنا بسبعين ألف صف من الملائكة وهم قائمون على أرجلهم وإذا النداء من قبل الله تعالى عزّ وجلّ ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد (صلعم) قال فرفعت حجب لا يعلم عددها إلا الله عزّ وجلّ فرأيت مائة صف من الملائكة قائمين لا يركعون وماية ألف صف راكعين لا يسجدون وماية ألف صف ساجدين لا يجلسون ولا يرفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة. قال النبي (صلعم) فبينما أنا كذلك وإذا النداء من العلي من قبل الله عزّ وجلّ يا حبيبي يا أحمد (أنا) أمامك ادن مني فإني أنا الله رب العالمين فعند ذلك أخذتني الرعدة والنفضة وارتعبت رعباً شديداً، ثم وقف الرفرف لم يمر ولم يصعد ولم ينزل فعند ذلك عرفت أني قريب من الله عزّ وجلّ فرفعت رأسي وإذا أنا بالعرش وسع كرسيه السموات والأرض وإذا هو من نور يتلألأ والكرسي نوره من نور العرش وحامله ثمانية من الملائكة، إثنان منهم على صورة بني آدم وإثنان على صورة الأسد (وإثنان)[٧٣] منهم على صورة النسر وإثنان منهم على صورة الثور فاللذان على صورة بني آدم يسبحان الله عزّ وجلّ ويقدسانه ويهللانهويكبرانه ويسألانه ساعة الرزق لبني آدم واللذان على صورة الأسد يسبحانه ويقدسانه ويسألانه الرزق للوحوش واللذان على صورة النسر يسبحان الله ويقدسانه ويسألانه ساعة الرزق للطيور واللذان على صورة الثور يسبحان الله ويقدسانه ويسألانه ساعة الرزق للدواب[٧٤]. وتحت العرش نهر كبير عظيم يقال له الكوثر على حافته وأطرافه مضروبات من الدر والياقوت واللؤلؤ والجوهر والعنبر والذهب والفضة وله أربعة أركان وعليه أكواب وطاسات وأباريق وكاسات من الجوهر أكثر من قطر المطر وورق الشجر ونبات الأرض ونجوم السماء ومن أسقاه الله من ذلك النهر لا يظمأ بعدها أبداً وإذا بين يدي العرش ملائكة من نور الله عزّ وجلّ من نظر إليهم من الملائكة الذين بهم تكاد أبصارهم تذهب وأقدام أولئك الملائكة قد

اخترقت تخوم الأرض السابعة بألف عام العرش على أكتافهم ولهم قرون كل قرن من المشرق إلى المغرب قد كتب الله على أقدامهم أسماء من أسمائه وهم يسبحون الله عزّ وجلّ بلغات مختلفة.

ورأيت ملائكة رؤوسهم عند العرش وأرجلهم قد اخترقت تخوم الأرض السابعة بألف عام لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له إلّه واحد ونحن له مسلمون.

ثم كشف لي عن حجاب دون العرش وهو من نور وحجاب من لؤلؤ أبيض وحجاب من ملكوت وحجاب من سحاب وحجاب من ياقوت أحمر وحجاب من زبرجد أخضر وحجاب من جلال وهذه غير الحجب الأولى.

ولم يـزل الرفرف يخترق حجاباً بعد حجاب حتى لم يبق بيني وبين ربي غير حجاب واحد وهو حجاب الوحدانية فكان كما قال الله فكان قاب قوسين أو أدنى. قال النبي (صلعم) فبينما أناواقف على باب حجاب الوحدانية وإذا النداء من العلي من فوق رأسي يا ملائكة إرفعوا حجاب الوحدانية الذي بيني وبين حبيبي محمد حتى يقترب إليّ فنظرت إلى دركات الحق سبحانه وتعالى وإذا فيها ملائكة بقدر ما رأيت في جميع السموات السبع التي قطعناها سبعين ألف ألف ألف صف ورأيت في دركات الحق عزّ وجلّ سبعين ألف صف من الملائكة الطوال الذين رؤوسهم عند داخل الدركات وأرجلهم قد اخترقت تخوم الأرض السابعة بألف عام وسبعين ألف صف من هذه الملائكة الطوال تجري دموعهم أقوى من الأنهار من خشية الله الملك الجبار وهم موكلون بحجب الوحدانية ويرتعدون وينفضون خوفاً من الله عزّ وجلّ مما غشيهم من نور حجاب الوحدانية ولكل صف من هؤلاء السبعين ألف ألف ملك يسبحون الله عزّ وجلّ ويقدسونه وتسبيحهم لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال فبينما أنا واقف في باب حجاب الوحدانية والرفرف يلوح في نور الله عزّ وجلّ فأخذني خوف شديد ورعب إذ ناداني ربي لا روع عليك يا محمد لا خوف عليك يا أحمد أنت عبدي ورسولي فعند ذلك ركن قلبي وسكن خوفي وروعي ونظرت إلى أمر عظيم لن تناله الألسن ولن تبلغه الأوهام وغشيني من نور الله عزّ وجلّ حتى غشيت على بصري من العمى فرد الله في قلبي ورأيت

من نور الله سبحانه وتعالى وجلاله ووقاره وعظمته وسلطانه ما تتحير فيه العقول والأبصار فسألت الله عزّ وجلّ أن يلهمني الثبات فنظرت ربي بعين رأسي وعين قلبي وقد كشف لي عن حجابه مستوياً على عرشه في علو جلاله وكماله وقدرته وسلطانه ولم يؤذن لي بأن أحدث بأكثر من هذا فإنه سبحانه وتعالى لا يتكيف ولا يتمثل ولا يتصور ولا يتوهم سبحانه عما يوصف علّام الغيوب والشهادة لا يغلب عن مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فناداني ربي سبحانه وتعالى ادن مني يا حبيبي يا محمد فدنوت من ربي عزّ وجلّ فكنت كما قال ثم دنا(٧٥) فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى قيل ما من قوس إلا له قاب من الفضة وإلى الساعة قاب كذلك من الجانب الآخر، قيل من الفضة وإلى الوتر وقيل المراد من القوسين هو الحاجبان فكان صلى الله عليه السلام أقرب إلى الله تعالى من الحاجبين المقربين إلى العينين فوضع ربي سبحانه وتعالى يده الكريمة بين كتفي ولم تكن يده كيد المخلوقين بل يد القدرة فوجدت بردها على كبدي فأورثني علوم الأولين والآخرين وعلم ما كان وما يكون وأزال عني ما كان ويكون ما قد رأيته من الأهوال والعجائب.

وملئت فرحاً وسروراً فأخذني عند ذلك الثبات فظننت أن كل من في السموات والأرضين قد ماتوا لأني لم أسمع هناك حساً ولا حركة ثم رجع ذهني إلي وعقلي علي ثم تفكرت فيما أنا فيه من الكرامة والشوق العظيم فنوديت يا أحمد ادن مني أنا ربك فقلت إلهي وسيدي ومولاي أنت السلام ومنك السلام فناداني ثانية ادن مني فدنوت منه سبحانه وتعالى فقال وعليك الصلوات والسلام، قال النبي (صلعم) فسمعت نغمة كنغمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إلهي وسيدي ومولاي أمعنا أبو بكر الصديق؟.

قال لا يا محمد أنت في مكان لا يصل إليه أبو بكر ولا ملك ولا نبي ولكن على سويداء قلبك فعلمت أن في قلبك ما من أحد أحب إليك من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فخاطبتك على لسانه كي لا تخاف وتحزن على ذلك، قال النبي (صعلم) فنظرت حتى اكتفيت وسألت حتى اشتفيت فألهمني ربي عزّ وجلّ فقلت:

التحيات المباركات الصلوات لله قال الله عزّ وجلّ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال فسمعت الملائكة من ورائي وهم يقولون أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، قال الله عزّ وجلّ وأنا أشهد أن محمداً عبده ورسوله من أحبك فقد أحبني ومن كذبك فقد كذبني فما بيني وبينه[٧٦]، قال صلى الله عليه وسلم، إلا أن يأتي يوم القيامة وهو راكب على ناقته العضباء[٧٧] والأنبياء والرسل تمشي تحت ركابه وتنادي الخلائق يا رب العالمين بجاه هذا النبي الكريم أن تجيرنا من العذاب الأليم.

قال ﷺ فوجدت حلاوة ولذة من لذة قربه وملئت فرحاً وسروراً ووقع الاستبشار والطرب في قلبي حتى جعلت أنظر يميناً وشمالاً في نور ربي عزّ وجلّ وعلمت ما في السموات والأرض حتى لو أردت أن أحدثكم بالأشياء كلها لفعلت ذلك بإذن الله سبحانه فألهمني ربي عزّ وجلّ فقلت الحسنة والسيئة والدرجات والكفارة والذنوب الموبقات فقال الله عزّ وجلّ ما هي يا محمد وهو أعلم ما ألهمني ربي ذلك كرامة وشفقة على عباده المتقين.

فقلت أسباغ الوضوء ومشي الجماعات وانتظار الصلوات فقال لي الله عزّ وجلّ صدقت يا محمد، وما هي الحسنة فقلت إطعام الطعام وإفشاء السلام والتهجد بالليل والناس نيام، قال النبي (صلعم) وقال الله عزّ وجلّ آمن الرسول بما أنزل إليه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فقلت إنا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا وهو نسيان من شهد، وكانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به واختصوا فيه بذنب عجل لهم العقوبة بنقص شيء من مطعم أو مشرب على حساب ذلك الذنب الذي نسوه أو أخطأوا فيه وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة المكرمة ببركات محمد صلى الله عليه وسلم فإذا كان هذا النقصان بسبب النسيان فكيف ممن يفعل المنكر بقصده وفجوره وشومه ينقم كل الأنام بقطع الغيث ونقص الثمر والآفات والمصائب، قال النبي (صلعم) فقلت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا امراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مثلهم ـ أي مثل بني إسرائيل ـ فقال الله عزّ وجلّ يا حبيبي يا أحمد لا نؤاخذكم مثلهم فقلت ربنا ولا تحمل علينا أصراً ـ أي جهداً ثقيلاً ـ ومثقالاً[٧٨] غليظاً لا نستطيع حمله كما حملته على الذين من قبلنا ـ يعني اليهود ـ فلم يقوموا به فجعلت منهم القردة والخنازير ـ ومعنى أصراً لا تشدد علينا وتغلظ الأمر كما

شددته على الذين من قبلنا وكل من أصابه ذنب أصبح ذنبه مكتوباً على عتبة داره وعلى جنبه فقد رفع اللهذلك عن هذه الأمة.

قال النبي (صلعم) فقلت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

قال الله عزّ وجلّ رفعت ذلك عنك وعن أمتك كل هذا.

فقلت إلّهي واعف عنا.

قال عفونا وتجاوزنا.

فقلت واغفر لنا وارحمنا.

قال الله عزّ وجلّ عفونا وسترنا.

فقلت أنت مولانا.

قال الله سبحانه وتعالى صدقت يا محمد أنا مولاكم.

قلت فانصرنا على القوم الكافرين إلى يوم القيامة.

فقال لي ربي سبحانه وتعالى يا محمد هل تراني بعينيك؟

فقلت سبحانك لا تدركك الأبصار ولا تحويك الأقطار وتفتر[٧٩] في الليل والنهار فرأيت الواحد القهار الملك الجبار فقلت إلّهي وسيدي غشى بصري نورك وبهاؤك وجلالك لكن أراك بقلبي فقال يا حبيبي صفني فقلت سبحانك لا ينالك الواصفون ولا يحدك العارفون ولا تحويك الظنون.

قال يا أحمد عظم شأن وعزّ سلطان وارتفع مكان ولا إلّه غيري أنا الله مالك الملك وقاضي الحاجات ومجيب الدعوات من دعاني أجبته وقصدني أعطيته ومن توكل علي كفيته من الآفات والعاهات نجيته، يا أحمد أنظر إلي إني في موضع كلمتك فيه فما بيني وبينك رسول ولا ترجمان.

قال النبي (صلعم) فرفعت رأسي وقلت يا رب أين أنا؟.

قال أنت على بساط القدرة فرفعت القهقرات[٨٠] ورائي وهممت أن أخلع نعلي فناداني ربي سبحانه وتعالى لا تخلع نعلك دس بنعلك كي يشرف بساطنا وقد كتب من الأزل إنك أنت السيد المفضل فالتفت عن يميني وإذا بسيف نقمة

يقطر دماً وهو معلق بساق العرش اليمنى، فقلت إلهي وسيدي ومولاي إرفع السيف عن أمتي.

قال يا محمد سبق حكمي وقضائي لا يفني أكثر من أمتك إلّا بالطعن، والطاعون [٨١] قالت عائشة رضي الله عنها فقلت يا رسول الله علمنا الطعن فما الطاعون؟ غدة كغدة البعير يطعن في قلب الإنسان ويطلع شراره كالمسمار حوله حمرة بنفسجية يأخذ من الإنسان القي[٨٢] الذي يموت منه شهيد ويقوم من قبره ويده على طاعونه يخرج منه دم ملون ألوان الدم والريح ريح المسك يحكم الله عزّ وجلّ بما يشاء ويريد وهو الكبير المتعالي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إلهي وسيدي ومولاي أسالك شيئاً قال الله عزّ وجلّ وعزتي وجلالي آليت على نفسي من قبل أ ن أخلق أباك آدم بألف عام اني أعطيك وفي أمتك أرضيك فقلت: إلهي خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك واتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليمًا ورفعت إدريس مكاناً علياً وأعطيت لسليمان ملكاً عظيمًا وسخرت له الانس والجن والطير والوحوش والريح وخلقت عيسى من روحك وأنا بم فضلتني كما فضلت هؤلاء: قال الله عزّ وجلّ يا محمد إن كنت خلقت آدم بيدي خلقته من طين فقد خلقتك من نور وجهي وإن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً والحبيب أفضل من الخليل وإن كنت كلمت موسى تكليمًا فإني كلمته من وراء الحجب على جبل طور سيناء فقد كلمتك على بساط القدرة بغير حجاب ما ناله موسى ولا غيره وإن كنت رفعت إدريس مكاناً علياً فإني رفعته إلى السماء الرابعة وإني رفعتك إلى مكان لم يصله أحد من العالمين وإن كنت أعطيت سليمان ملكاً عظيمًا فقد جعلت لك الأرض مسجداً والتراب طهراً حيثما ناديتني قلت لك لبيك يا عبدي وإن كنت أعطيت سليمان ملكاً عظيمًا فقد أعطيتك فاتحة الكتاب وسورة البقرة وآل عمران ما يقرؤها أحد من أمتك إلا غفرنا لـه ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل وإن كنت خلقت عيسى من روحي فقد شققت لك إسمًا من أسمائي وألحقت اسمك مع إسمي ليـقـول عبدي لا إله إلا الله ومحمد رسول الله وإن لم يقر برسالتك لا قبل منه علمه وهو في الآخرة من الخاسرين.

فقلت لك الحمد يا رب ثم قال الله تعالى يا محمد وأعطيتك الكوثر وهو نهر حصاه الدر والجوهر، ماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وترابه

المسك الأزفر - نباته الزعفران سبعين ألف ميلاً[٨٣] وأعطيتك الحوض المورود المقام المحمود واللواء المعقود والشفاعة الكبرى والدرجة العليا والرفعة الأولى وصيام رمضان وفيه نزل عليك القرآن وأحللت لك الغنائم ولم أحلها لأحد من قبلك لا لنبي ولا لرسول.

قال النبي (صلعم) فقلت يا رب هذا لي فما لأمتي؟

قال: يا محمد قد غفرت لسبعين ألف من أمتك ممن وجبت لهم النار، فقلت يا رب زدني[٨٤] قال الله تعالى عزّ وجلّ: يا محمد العبد المذنب منهم والعاصي إذا تاب قبل موته بشهر تبت عليه.

قلت: يا رب زدني قال إذا تاب عند الغرغرة جدت عليه وقبلت توبته.

قلت: يا رب زدني.

قال قد عتقنا من أمتك مائة ألف من النار.

قلت: يا رب زدني قال إذا كان شهر رمضان عتقنا من كل ليلة من أمتك ألف عتق من النار كلهم قد أستوجب لهم العذاب.

قلت: يا رب زدني.

قال الله عزّ وجلّ إذا كان آخر ليلة من رمضان عتقنا بقدر ما عتقنا من أول الشهر إلى آخره

فقلت: يا رب زدني ثلاثاً. . فقال لي خذ.

فقلت: يا رب ما تفسيرها؟ قال الأولى عفو والثانية كرم والثالثة رحمة.

فقلت: يا رب لوجهك الحمد والشكر والإحسان والكرم والعظمة والإمتنان.

قال النبي (صلعم): ثم أمسك عني الكلام ساعة فقال لي ربي عزّ وجلّ يا محمد اني مفترض عليك وعلى أمتك في كل يوم وليلة خمسين صلاة وفي كل سنة صوم شهر رمضان والحج إلى بيت الله من استطاع إليه سبيلا ومن كل مائة درهم خمسة دراهم [٨٥] وفي كل أربعين شاة ومن البقر والحبوب فهذا مفروض عليك

وعلى أمتك فمن أدّاها أدخله الجنة ومن قصر عنها فحاسبته على ما شئت وإن شئت غفرت له وإن شئت عذبته قلت سمعاً وطاعة وصبراً محتسباً، أمسك عني ساعة فأخذ الرفرف بالرجوع فقلت إن المناجاة قد انقطعت بيني وبين ربي عزّ وجلّ وقد توجني بتاج الكرامة والثواب.

وسمعت بمؤذن[٨٦] وهو يصلي علي حتى أوقفني بين يدي جبرائيل عليه السلام فلما رآني فرح فرحاً عظيًما قبل ما بين عيني وضمني إلى صدره وقال مرحباً بحبيب زار محبوبه ثم مر بجناحيه على فؤادي فرجع إلي قلبي كما كان فقلت يا أخي يا جبرائيل إنني عطشان فقال يا محمد الساعة أدخلك الجنة وأسقيك من شرابها وأريك ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته فيها من أمتك.

قال النبي (صلعم) هذه قصة أهل الجنة وما رأى فيها[٨٧] ثم أخذني جبرائيل إلى باب الجنة فنادى يا رضوان فأجابه وقال من بالباب قال جبرائيل قال رضوان ومن معك الذي أشرقت الجنة من نور وجهه فقال معي محمد حبيب الله فقال رضوان (صلعم) ورحم أمته أكرم مبعوث إلى خير أمة ثم فتح الباب لنا فدخل جبرائيل ثم أخذ بيدي وأدخلني الجنة ـ رزقنا الله نعيمها والخلود فيها والنظر إلى خالقنا يا رب العالمين آمين[٨٨].

ثم تقدمت وإذا أنا بملك عظيم الخلقة حسن المنظر بهي الوجه النور يلوح من وجهه وهو قاعد على كرسي من نور وعليه الحلي والحلل فقلت يا جبرائيل من هذا الملك؟.

فقال: هذا رضوان خازن الجنان فتقدمت وسلمت عليه فلما رآني قام مبتسمًا ورد علي السلام وعانقني وصافحني وقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الناصح.

فقال جبرائيل عليه السلام: يا رضوان خذ بيد حبيب الله وأره الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه المتقين قال: فأخذني رضوان وأدخلني الجنة فنظرت إلى أرضها فإذا هي مثل الفضة البيضاء فتأملت رياضها وحصباءها اللؤلؤ والمرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها وأنهارها وسقفها من الياقوت الأحمر منعقدة قبابها على نهر الكوثر العرش سقفها والرحمة حشوها وملائكة الرحمن رجالها. قال فأخذ جبرائيل بيدي وسرنا بين أشجار وأنهار وأطيار وسرر وفرش

وحور عين أبكار وقصور عالية المقدار وولدان كأنهن أقمار وخدام وحشم وكرم ونعيم ونديم ومقام خلود وسعود ودوام فرح ومرح في جوار الملك العلاّم.

ورأيت فيه من لؤلؤة بيضاء معلقة بلا علاقة تحملها ولا دعامة تمسكها(٨٩) لها ألف باب من الذهب الأحمر على كل باب ألف وصيفة ووصيفة، أي ألف خادم وخادمة - ورأيت داخل القبة ألف مقصورة في كل مقصورة - غرفة - ألف سرير، على كل سرير ألف فراش من الاستبرق بين كل فراش وفراش نهر يجري من ماء لا يبتل الظاهر والباطن وأنا متعجب من ذلك وإذا النداء من العلي تتعجب من هذا يا محمد أنظر إلى صدر القبة وإذا هي مد البصر فنظرت إليها وتأملتها وإذا هي قبة من الزمــرد الأخضر فيها سرير من العنبر الأبيض مرصع بالدر والجواهر عليه جارية وحور كحل نجل شكال دعج غنج بحركة أحسن من الشمس والقمر ومن أين للشمس والقمر حسن وبهاء وفصاحة وقد واعتدال مثلها خلقها الله تعالى من قدمها إلى ركبتها من الكافور الأبيض ومن ركبتها إلى صدرها من المسك الأزفر ومن صدرها إلى رأسها من النورالأزهر لها ألف وستمائة ذؤابة من الشعر لو أشرقت على أهل الأرض لأضاء من نور خنصرها المشرق المغرب ولو تفلت في البحر المالح لصار عذباً فراتاً(٩٠) فقلت: يا جبرائيل لمن هذا النعيم الأعظم؟ قال جبرائيل يا حبيب الله إن هذا لمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمداً رسول الله.

قال النبي (صلعم) فتأملت في الجنة وإذا عرضهـا كعرض السمـوات الأرض مبنية من الذهب الأحمر والفضة والدر والياقوت والجوهر واللؤلؤ والزمرد لأخضر وإذا ثمانية أبواب ستورها من سندس أخضر مفاتيحها من الياقوت لأحمر سورها لبنة من فضة ولبنة من ذهب مكتوب على الباب الأول جنة النعيم والباب الثاني دار السلام، الباب الثالث دار الخلد، الباب الرابع دار الفردوس لخامس دار الجلال، السادس جنة عدن، السابع دار الخير، الثامن دار العلى، حول كل دار مسيرة ألف ألف عام إلى تسعماية ألف ألف عام وكذلك عرضها مانون شهراً والشهر ثمانون يوماً واليوم ثمانون ساعة والساعة الواحدة ألف سنة ن سني هذه وفي كل جنة خلق الله عزّ وجلّ ثمانماية ألف ألف قصر من ذهب الأحمر والدر والجواهر والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر وفي كل قصر ربعة آلاف ألف ألف طبقة بعضها فوق بعض في كل طبقة ألف شباك من نور

على كل شباك سرير من الذهب الأحمر والسندس الأخضر مكلل بالدر والجواهر بعضها فوق بعض على كل فراش حورية من الحور العين على كل واحدة منهن سبعون حلة ما بين أحمر وأخضر منسوج بالدر والجوهر والمرجان ووجوه تلك الحوريات أضواء من الشمس والقمر، لهن عيون لو نظر إليها أهل الدنيا لماتوا في ساعة واحدة لكل حورية ألف سرير من الذهب الأحمر مكلل بالدر والجوهر والمرجان يبين مخ ساقها من وراء ثيابها في رجل كل حورية ألف خلخال من الذهب الأحمر لو سمعه أهل الدنيا لتشوقوا لحسنها وفي عنق كل حورية ألف قلادة من الدر والجوهر والمرجان واللؤلؤ تضيء مثل الكوكب الدري وبين يدي كل حورية ألف ألف وصيفة مكتوب على باب كل قصر إسم صاحبه وعلى نحر كل حورية إسم زوجها بنور يتلألأ: أنا لفلان ابن فلان. طول كل قصر من تلك القصورة ألف وثلاثمائة سنة وعرضه ألف وأربعمائة سنة في كل قصر أبواب وبين الباب والباب خمسون سنة على كل باب بستان نهر يجري، في كل بستان نهر من لبن ونهر من عسل ونهر من خمر لذة للشاربين ونهر من ماء غير آسن - أي متغير - مضروب على جنب كل نهر ألف خيمة وألف قبة من الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر وفرش من السندس وفي كل بستان فواكه كثيرة لا تحد ولا تعد ولا تحصى.

قال الرسول (صلعم) فرأيت نعيمًا وأشجاراً وأنهاراً وحوراً عيناً وولدانا وما أعد الله عزّ وجلّ قال لسكانها كما قال تعالى «وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين[٩١]» قال رسول الله (صلعم) ونظرت إلى حيطانها وإذا هي من لؤلؤ وأبوابها من الياقوت الأحمر قبابها على شاطىء نهر الكوثر والعرش سقفها والحور العين حشوها[٩٢]، ووصفها كثير عظيم والملائكة، وأول قصر لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه أول من صدق النبي (صلعم) والثاني قصر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والثالث قصر لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

والرابع لعلي رضي الله عنه.

قال النبي (صلعم) أخذني جبرائيل بيدي وودعني رضوان وخرجنا ثم سار بي جبرائيل حتى أوقفني على باب السماء السابعة فسلمت على إبراهيم الخليل

عليه وعلى من عنده فرد علي السلام ونهض[٩٣] قائمًا وقبلني بين عيني وقال لي مرحباً بحبيب أتى من عند حبيبه ثم قال لي يا محمد إذا أنت أتيت أمتك وحدثتهم بما رأيت في هذه الليلة من العجب ومن عظمة ربك سبحانه وتعالى فقل لأمتك ان إبراهيم الخليل عليه السلام يسلم عليكم ويقول لكم غراس أشجار الجنة: «سبحان الله» «والحمد لله» «ولا إلّه إلا الله» «والله أكبر» «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وقل لهم إن شربها السلسبيل وطعامها ممزوج بزنجبيل وأنهارها دائمة وسررها مرفوعة وفرشها السندس والاستبرق وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فويل ثم ويل لمن حرم حظه منها.

قال رسول الله (صلعم) ثم ودعت أبي إبراهيم الخليل عليه السلام ولم أزل أسير حتى أتيت أخي موسى بن عمران عليه السلام فسلمت عليه فلما رآني نهض قائمًا فرد علي السلام وهنأني وقبل ما بين عيني وقال: مرحباً بالحبيب الصادق وبالحق الناطق ثم قال يا محمد أتيت من ربك في هذه الساعة؟.

قلت نعم.

فقال أعطاك ربك يا أحمد.

فقلت أعطاني وهداني واصطفاني.

قال فما أعطاك لأمتك.

قلت أعطاهم وأرضاهم وأرضاني فيهم وافترض علي وعليهم في اليوم والليلة خمسين صلاة.

قال موسى عليه السلام يا محمد أمتك ضعاف يأتون في آخر الزمان، جسدهم ضعيف وعمرهم قصير لا يطبقون ذلك الطلب من ربك أطلب منه أن يخفف عنهم.

قلت يا أخي يا موسى من يخترق الحجب التي اخترقها؟.

قال موسى إسأله من ها هنا فإنه سميع قريب، قال فإذا النداء من العلى من قبل الله سبحانه وتعالى، سل عما شئت فقد أحببتك أنت حبيبي ونبيي

ورسولي وخيرتي من خلقي فقلت إلَهي وسيدي ومولاي أمتي ضعاف لا يقدرون على خمسين صلاة.

فقال يا محمد قد رفعت عنك وعن أمتك عشراً فرجعت إلى موسى مسروراً فحدثته بذلك.

فقال إرجع إلى ربك فإن أمتك ضعاف لا يطيقون أربعين صلاة.

قال النبي (صلعم) فلم أزل أرجع إلى ربي وأسأله ويضع عني عشراً بعد عشر حتى وضع عني وعنهم خمساً وأربعين صلاة وبقيت الخمس صلوات.

قال موسى إرجع إلى ربك وسله ينقص من الخمسة ثلاثاً ويجعلها صلاة بالليل وصلاة بالنهار(٩٤).

فقلت يا أخي موسى إني استحيت من ربي أن أرجع إليه وإذا النداء من قبل الله عزّ وجلّ يا محمد إن أمتك لا تطيق ذلك، أنقصت عنهم.

فقلت يا ربي دعها خمسة وأنت تعينهم على ذلك.

فقال: يا محمد بلغ أمتك عني وبهذا جرى قلمي واستوفاه عملي وحكمي إن من أتاني بهذه الصلوات الخمس كما أمرته بإتمام ركوعها وسجودها وإتباع وضوئها وحفظ مواقيتها أدخله جنتي وأتمم عليه نعمتي في الدنيا والآخرة يا محمد جعلتها خمساً وفي العمل، في الميزان كل صلاة بعشرة ما يبدل القول الحسنة بعشرة أمثالها.

قال النبي (صلعم) ودعت أخي موسى وإسماعيل وهو على حاله فلما رآني عانقني: مرحباً بحبيب الله أي شيء لقيت من ربك من أمر الصلاة قلت فضيلة وحسنة وشرفاً وعطاءً كثيراً وفضلاً جزيلاً لاحقة فقال يا محمد أما علمت أنك أشرف الخلق على الله تعالى فقلت نعم ثم أخذني جبرائيل بيدي ولم يزل يسير بي من سماء إلى سماء فما مررت على شيء في السموات والجنان الا ومكتوب عليه لا إلَه إلا الله محمد رسول الله.

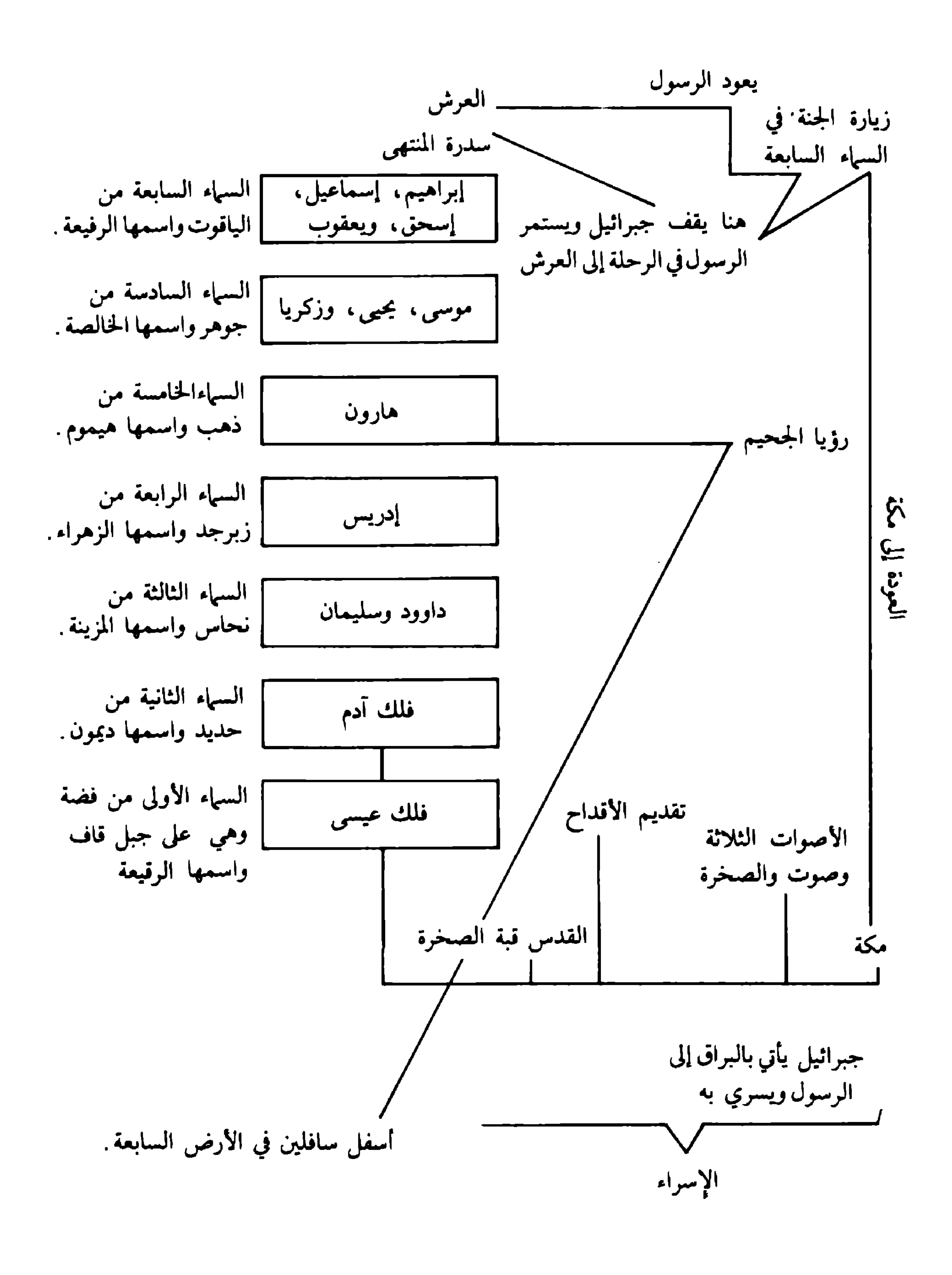
قال النبي (صلعم) فلما انتهيت إلى سماء الدنيا وإذا بالليل على حاله لم ينقص منه إلا بقدر شعيرة فنزلنا ببيت المقدس وإذا بالبراق وهو واقف على حاله

لم يتقدم ولم يتأخر فركبتها فقلت بسم الله الرحمن الرحيم وكان الآخذ بركابي ميكائيل والمسوى[٩٥] بثيابي في السرج إسرافيل والآخذ بعنانها جبرائيل، صلاة الله عليهم أجمعين.

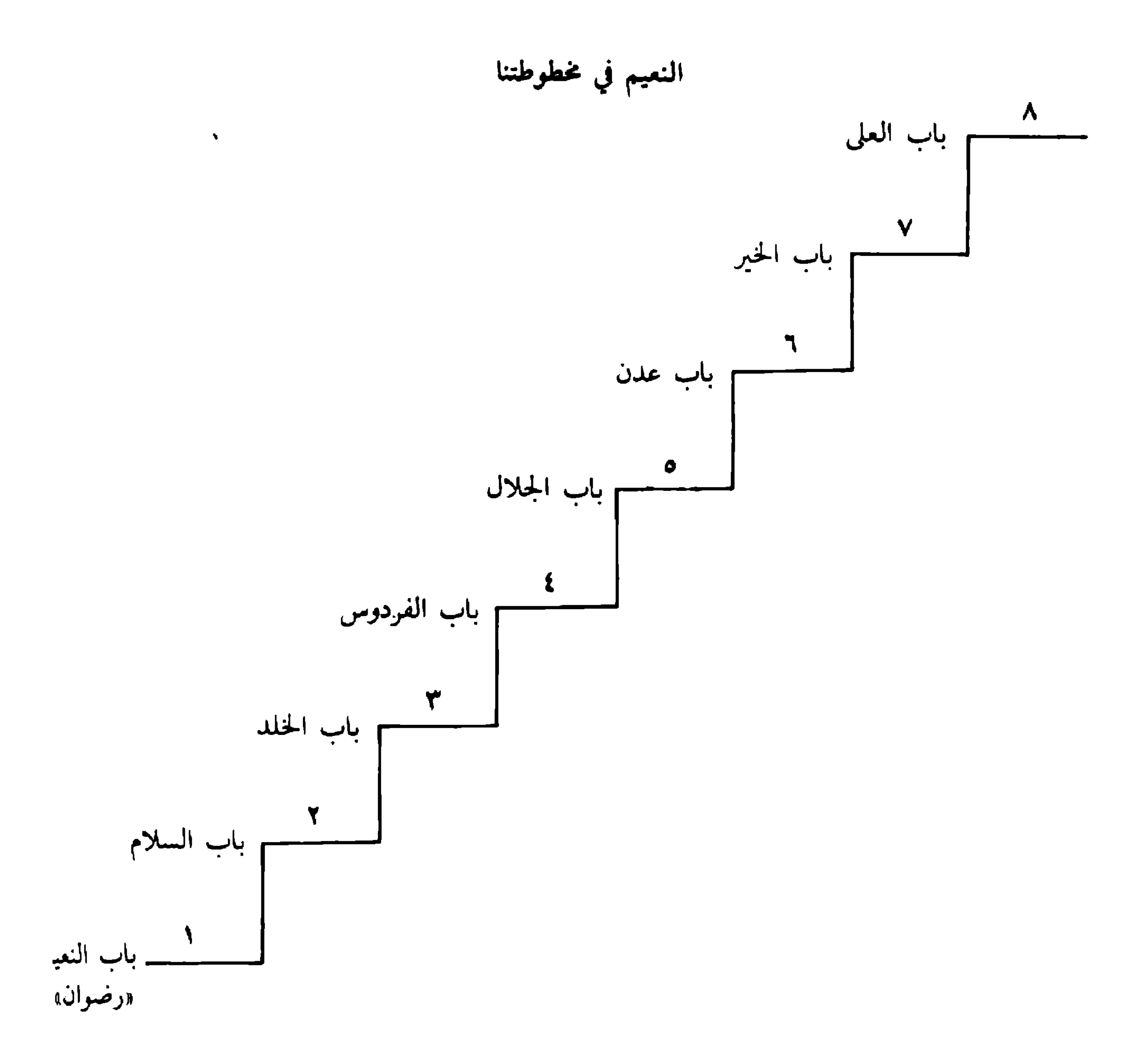
ثم إنها خطت خطوة أخرى وإذا بحبال مكة قد ظهرت فقال جبرائيل يا محمد هذه الأبطح وهذه مكة ومن هذا الموضع أخذتك وإليه رددتك فقلت لوجه ربي الحمد والشكر فقال جبرائيل يا محمد إذا أصبحت غداً فحدث قومك بما رأيت من عجائب السموات ومن قدرة رب العالمين فقلت يا جبرائيل أكثرهم لي أعداء لا يصدقونني فقال جبرائيل يا محمد إن لم يصدقك قريش وأبو جهل، يصدقك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إن الله عزّ وجلّ إختاره لك ولياً وصديقاً في السموات والأرض وهو أفضل أمتك ثم أخذني في وداع جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل صلوات الله عليهم أجمعين. ثم أخذت الطريق إلى منزل خديجة رضي الله عنها فوجدتها نائمة فدخلت مضجعي فلما أحست بي قالت مرحباً بك يا محمد أين كنت يا قرة عيني ويا ثمرة فؤادي لا فرق الله بيني وبينك فقلت لها يا خديجة كنت عند ربي سبحانه وتعالى وحدثتها بحديث المعراج من أوله إلى آخره ففرحت بذلك فرحاً عظيماً وقالت يا محمد إذا أصبحت غداً فحدث قومك بما رأيت قال النبي (صلعم) فنمت على فراش إلى وقت صلاة الصبح ثم خرجت إلى باب المسجد الحرام وكان من عادة أبي جهل لعنه الله تعالى إذا مر علي يسألني حسب عادته فقلت له أسرى بي البارحة.

فقال: إلى أين.

فقلت: إلى بيت المقدس ثم إلى العرش ثم إلى الكرسي ثم إلى الحجب وخاطبت الحق سبحانه وتعالى وأعطاني وأكرمني وحياني ورحب بي وأجلسني على بساط النور ورأيت الجنة وما أعد الله فيها لعباده المتقين ورأيت النار وما أعد الله فيها للعاصين.



بناء القصة كما جاء في المخطوطة التي حققناها والمنسوبة إلى ابن عباس..



النعيم في مخطوطتنا

الجنة في القرآن توصف بعليين ونحن نقترح لها هذا الشكل الصاعد ويقابلها جهنم وهي أسفل سافلين

الجحيم في مخطوطتنا

أما وضع الجحيم فهو في أسفل السافلين «السفل» ولا يعقل أن يكون الجحيم في السماء الخامسة وإنما الرؤيا والكشف حصلتا في تلك السماء ومنها:

الأرض

جهنم ــــــــــــ الطبقة العليا

أبحر ومدن وقصور من نار شجرة الزقوم عذاب الجحيم والزمهرير.

الجحيم في مخطوطتنا:
في السماء الخامسة.

ففتحوا لنا الباب ودخلنا وإذا هي سماء من ذهب أحمر اسمها هيموم ثم سرت فيها قليلاً فرأيت باباً معلقاً عليه سطران مكتوبان بالنور فقال لي جبريل يا حبيب الله تقدم واقرأهما قال فنطقت الحروف له فتقدمت وإذا مكتوب عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فلما قبلته سقط القفل وانفتح الباب بقدرة الله تعالى ونظرت إلى أسفل تخوم الأرض السابعة ـ السفلى فنظرت منه ورأيت السماءالسابعة إلى العرش.

هوامش
الباب السادس

(١) الأصل: مضطرب
(٢) الأصل: أعلم
(٣) قرآن: سورة الإسراء (١٧): ٠١
(٤) ساقطة في الأصل
(٥) ابن إسحق يورد لنا في السيرة فصلي الإسراء والمعراج بالخطوط العريضة وصعود الرسول إلى السموات السبع وزيارة الجحيم والنعيم بشكل موجز، أنظر أيضاً ابن هشام، الذي يتبنى رواية ابن إسحق،(السيرة النبوية)(القاهرة ١٩٣٦) جـ ص ٣٦ ـ ٥٠.
(٦) أنظر ابن كثير(البداية والنهاية)(القاهرة ١٩٣٢) جـ٢، ص ١٠٩، يناقش ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤) مناقشة كافية مسألة تاريخ ونوع المعراج وصحة الأحاديث الوارد فيه، نم. جـ٣ ط ١ (القاهرة، ١٩٧٧ ص ١٠٨ ـ ١١٧).
(٧) الأصل: ماذا،
(٨) الأصل: اتوحشت وهو تصحيف،
(٩) البراق مذكر ويعامله الناسخ معاملة المؤنث في النص على أنه دابة، وتختلط الوظائف النحوية عليه اختلاطاً عجيباً اضطررنا معه إلى التصحيح دون الإشارة إليه لكثرة وروده في المخطوطة.
(١٠) الأصل: بامرات شعرها
(١١) الأصل: صاروا
(١٢) الحليب والخمر والماء هي محتويات الأقداح في رواية ابن عباس، والمخطوطة تستبدل باللبن وتغفل ذكر شرب الماء الذي يرمز إلى الطوفان والفرق فيما لو أن الرسول اختار الماء على اللبن أو الحليب الذي يرتبط بالخصب.
(١٣) الأصل: كنفني.
(١٤) الأصل: اضطراب
(١٥) يستعمل كلمة ملك بمعنى اسم النوع أي نوع الملائكة.
(١٦) أنظر رمزية المعادن في الباب الثالث والرابع.

(١٧) تتفرد هذه المخطوطة من بين عشرين نص مطبوع بشكل قصة وأربعين رواية حديث بتعيين جغرافية السماء الأولى على جبل قاف فإذا كان الصعود إلى السموات يرمز إلى التطهر من مادة الأرض والإرتفاع إلى مستويات روحية ترتقي مع كل سماء فتصور السماء الأولى على جبل قاف أمر منطقي، دانتي في كوميدياه الإلّهية يصعد مثل هذه الجبل قبل الوصول إلى المطهر.

(١٨) الأصل: الكرام.

(١٩) تضع المخطوطة عيسى في الأولى وآدم ثم داوود وسليمان في الثانية ويوسف في الثالثة وإدريس في الرابعة وكذلك هارون والأحق أن يكون في الخامسة التي تركها الناسخ خالية ويحيى وموسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وغالبية المصادر الأولى من حديث وتاريخ تضع آدم في الأولى يحيى وعيسى في الثانية ويوسف في الثالثة إدريس في الرابعة هارون في الخامسة موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وهو الأعم الأغلب عند ابن إسحق وابن هشام وابن عربي وقد استجمع ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ج ٤٠ / بيروت ١٩٦٦ ص ٢٣٩ ـ ٢٨ ما يقارب الأربعين رواية لحديث المعراج كذلك فعل السيوطي في الخصائص الكبرى جـ ١٠ (القاهرة، لات) ص ٣٤٩ ـ ٣٧٧، وأغلبها تحافظ على الترتيب الذي لمعنا إليه، أنظر أيضاً ابن عربي أحكام القرآن جـ ٣٠ ص ١١٨١ ـ ١١٨٣.

(٢٠) ربما هو ملك العناصر الموكل بأكناف السموات الذي يرمز إلى موضوع التعدد والوحدة فالله الذي يؤلف بين النار والثلج لقادر على التأليف بين قلوب عباده (والنار) ساقطة في المخطوطة وكذلك كل الألفاظ التي وضعت بين هلالين.

(٢١) كلمة ملاك تفهم من السياق وهي ساقطة.

(٢٢) الأبيات من البحر الطويل والبيت الأول مضطرب.

(٢٣) الأصل: تلك ومهللاً ومكبراً أسقطنا مكبراً فاستقام الوزن.

(٢٤) يجري ترتيب أسماء السموات السبع والمعدن الذي صيغت كل منها في المخطوطة: كما يلي، الرفيعة من الفضة، ديمون من الحديد، المزينة من نحاس، الزهراء من الزبرجد، هيموم من ذهب أحمر، الخالصة من جوهر، الرفيعة من ياقوت أحمر.

(٢٥) وصف آدم وموقعه من الفلك الأول ساقط من المخطوطة فالسماء الأولى هي كرسي آدم كما في السيرة وكذلك في أغلب الروايات.

(٢٦) يعوز الناسخ الإحساس بالوزن فهو يكتب الأبيات الشعرية بدون استثناء كما يكتب النثر فلا يميز القارىء صدور الأبيات وأعجازها كما أنه يبتعد عن أوزانها الأصلية فتبدو وكأنها لا شعر ولا نثر وقد استطعنا بقرينة الأوزان أن نعيد ترتيب معظم الأبيات وأثبتنا النقص كما أتى في المخطوطة.

(٢٧) ناقص في المخطوطة.

(٢٨) مضطرب.

(٢٩) يقصد يوسف الذي فضله الله بالحكمة والحسن على أشقائه.

(٣٠) الأصل. رهرة.

(٣١) أنظر فلك إدريس في الباب الثالث من هذه الدراسة.

(٣٢) الأصل: اللازات.

(٣٣) الأصل: ملك.

(٣٤) حزن.

(٣٥) الأصل: عزئيل

(٣٦) شب.

(٣٧) الأصل قيمة وكذلك الصلوة ويعني الصلاة وكتابة هذه الكلمات بشكلها القرآني يستدل منه أن مخطوطة خزوم التي بين أيدينا قد بنيت على أساس مخطوطة أقدم منها أقرب شيء إلى نصها رواية ابن عباس مع اختلاف في عدد الأنبياء والملائكة ومواقعهم ووصف الجنة والنار والعرش وما إليها.

(٣٨) قرآن: الأنعام سورة، ٦١ آية، ٦ والمخطوطة غيرت الضمير في الآية «حتى إذ جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون».

(٣٩) من أسماء الجنة في درجاتها الأجمل والأعلى.

(٤٠) كذا في الأصل ولعلها نقرة.

(٤١) هما ملكا الموت وقد شذا على الشكل العبراني الغالب في أسماء الملائكة لاشتقاق إسميهما من مصدر عربي، إن مكتشفات أبلا السورية أثبتت وجود أصول وجذور سورية عربية قديمة لكثير من أسماء العلم العبرانية.

(٤٢) الأصل: وحث وهو تصحيف.

(٤٣) كثير من المعاريج التي بنيت على رواية ابن عباس إنما صيغت لتلقى إلقاء في احتفالات دينية كليلة أول جمعة من الشهر السابع في التقويم الهجري وهي ليلة الرغائب التي زعم جماعة أن الإسراء والمعراج حدثا في تلك الليلة وأنه إذا قرىء المعراج في تلك الليلة تقبل الله فيها دعوات القارىء المؤمن وأمنياته ولا أساس لذلك كما بينه ابن كثير أنظر البداية ص ١٠٩.

(٤٤) تكرار الصلوات على الرسول «ﷺ» والشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والدعوات المعترضة في شكل دعاء وترداد «آمين» من السامعين أو تكرار كالصلاة على الرسول والتشهد هي قرائن دالة على على أن هذه المعاريج صيغت لتلقى إلقاء فعندما يذكر الرواية الرسول يصلي جمهور المستمعين بعده عليه وعندما يتشهد يتشهدون معه وعندما يدعو الله يستجيبون لمعراج الرسول ولسيرة مولده الشريفة.

(٤٥) الأصل: النقام وهو تصحيف.

(٤٦) الأصل: ولم يخافون من علام.... وهو خطأ في النحو.

(٤٧) الأصل: يتزينون وهو خطأ وكثيراً ما يستعمل للمؤنث السالم في الفعل والجمع صيغ المذكر السالم كما هو الأمر في أفعال هذه الفقرة.

(٤٨) تذكرنا عبارة انقطعت أجنحته هنا بالإله الوثني إيكاروس الذي حاول أن يطير إلى الشمس بأجنحةٍ من شمع فذابت أجنحته قبل أن يصل إليها وهوى. وإبليس حاول أن يسمو إلى مقام الاسم الأعظم فانقطعت أجنحته وهوى في الخيال الشعبي وكذلك نمرود البابلي.

(٤٩) قرآن كريم سورة البقرة ٢ آية ٢٧٥ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» يتخبط وليس تخبط كما هي في المخطوطة الأصل.

(٥٠) الأصل: وجهك.

(٥١) كذا إسم السماء الأولى واسمها العجيبة من رواية ابن عباس ومرشمعو في القشيري.

(٥٢) قرآن كريم: هود ١١ آية ٦ من المخطوطة «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها».

(٥٣) خلافا لمعظم الروايات يضع الناسخ في السماء السابعة بالإضافة إلى إبراهيم أبناءه إسماعيل وإسحق ويعقوب.

(٥٤) الأصل: لم لا يزورروه.

(٥٥) الأصل: هواه.

(٥٦) الأصل: الواو ساقطة.

(٥٧) الأصل: أقولو.

(٥٨) الأصل: إنهم.

(٥٩) الأصل: الفاء ساقطة.

(٦٠) الأصل: التلال.

(٦١) الأصل: لبى.

(٦٢) الأصل: الأتان.

(٦٣) الأصل: الوصل.

(٦٤) الأصل: فقلت.

(٦٥) الأصل: ساقطة.

(٦٦) سدرة المنتهى في روايات المتصوفة هي الحد الذي لا تتجاوزه المخلوقات أياً كانت إلى الخالق وقد حظي الرسول (صلعم) بتجاوز هذا الحد إكراماً ومكانة.

(٦٧) ربما لفني.

(٦٨) جبرائيل هو ملك الوحي الذي أنزل بواسطته القرآن وتغفل المخطوطة هذه الخاصة لأنها تورد وظائف الملائكة كما عرفت في الفولكلور الشعبي.

(٦٩) ربما تعجبت (هي الكلمة).

(٧٠) ملفح أو متوج وهي ساقطة.

- تكرر المخطوطة هنا ما أوردته سابقاً عن إسرافيل وباقي الملائكة ص (٨٣ - ٨٨)

(٧١) كوكب ياليل هو ملك السماء الرابعة في الرواية التي أثبتها القشيري.

(٧٢) لا يحد الله حد ولا يحتجب بحجاب يتناول رؤية المخلوق لا صورة الخالق وفكرة الحجب ربما كانت من آثار المتصوفة التي تصورت ان بين الله وخلقه حجباً وان الأنقى والأتقى بينهم يتجاوزها إلى الفناء بالله النور الأعظم فتسبغ عليه نعمة المشاهدة كما أسبغت على الرسول الكريم. أنظر مسلم فيما يختص بالحجاب صحيح مسلم جـ ١ (القاهرة لات) ص ١١١ - ١١٢ = ١١٥ - ١١٧.

أنظر أيضاً عبد الرحمن بن الجوزي كتاب الموضوعات جـ ١ ص ١١٦ - ١١٧.

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب» انظر قرآن سورة الشورى ٤٢، آية ٥١.

(٧٣) الأصل: ساقطة.
(٧٤) الأصل: تكلم بصيغة الجمع عن المثنى ونحن صوبناه في النص المحقق.
(٧٥) جرت حادثة المعراج بعام أو بعامين قبل الهجرة (٦٢١ - ٦٢٠ م) وسورة النجم هي من السور المكية المبكرة تصف نزول الوحي إلى الرسول لا صعوده إلى وجه الباري ولكن المتصوفة كابن عربي وبعض المفسرين اختصوها بالمعراج وهو اجتهاد لا يستند على دليل، أنظر القشيري كتاب المعراج (القاهرة ١٩٥٤) ص ١٢٧ - ١٢٨ ثم أنظر الطوسي «تفسير الطوسي» (النجف، ١٩٦٣) ص ٢٢ - ٢٢٤.
(٧٦) يلحظ خلل إما في التنقيط أو الضمائر أوحذف كلمة كقوله فما بيني وبينه شفاعة أو رابطة أو أوش.
(٧٧) ربما البيضاء.
(٧٨) الأصل: مثقا سقط منها «لا».
(٧٩) في النص لا وفي ساقطتان.
(٨٠) كذا في النص.
(٨١) «لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون» أنظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي جـ ٤ ليدن ١٩٦٢ ص ٣ أحمد بن حنبل مسند ٦، ١٣٣ - ١٤٥ - ٢٥٥ صحف الناسخ في المخطوطة الطاعون وأسقط منها الألف وحققناه بالعودة إلى الأصل.
(٨٢) في النص والبضجر وهي غير واضحة.
(٨٣) الأصل آمليا
(٨٤) الأصل زدتني.
(٨٥) في السيرة لابن إسحق ومعظم الروايات الأخرى يقتصر الفرض على الصلاة المخطوطة تضيف الزكاة.
(٨٦) الأصل: اذن.
(٨٧) يعود الضمير إلى الرسول ويضطر إلى السياق لحذف أصاب النص.
(٨٨) جملة دعائية معترضة هي من إضافات الرواية ويستجيب إليه جمهور المستمعين باسم فعل الأمر آمين في القراءات الجماعية.
(٨٩) كذلك وصف الرفرف.
(٩٠) هذه الحورية التي خلقها الله من الكافور والمسك والنور والتي من خنصرها يضيء المشرق والمغرب ومن تفلها يصبح البحر المالح عذباً فراتاً هي أروع ما أنتجته المخيلة الشعبية من رموز لثواب المؤمنين ورغم أن الصورة هي صورة حسية إلا أن مصاحباتها وإيحاءاتها التي تختلط بالمسك والكافور فيها روحانية غير خافية. كان فرجيل وهو رمز الحكمة والمعرفة والعقل في التراث المسيحي والروماني اليوناني كما تصوره دانتي دليل الشاعر الإيطالي في رحلته السماوية ولكن فرجيل كجبرائيل الذي يقف عند حد السماء السابعة، إنه يترك لبياتريس رمز الروح والطهر أن تقود دانتي في أفلاك السماء العليا ومستويات الروح القريبة من الفرات الأعظم حورية الكافور والمسك والنور هذه لها مثل هذا الإشعاع الروحي عند بياتريس بالرغم من حسية الرمز وشدة انطباعه.

(٩١) قرآن سورة الزخرف ٤٣ آية ٧١ «وفيها ما تشتهيه الأنفس..»
(٩٢) الأصل: حشيشها وهو تصحيف.
(٩٣) الأصل: وقام.
(٩٤) نسي صلاة الصباح أو الفجر.
(٩٥) في الأصل: المساوي وهو تصحيف.

عود على بدء

في هذه الدراسة حاولنا أن نحيط بكل ما يتصل بمادة البحث من نصوص وتعاملنا معها مباشرة واستقريناها غير مجتزئين، لم نصطلم الرابطة العفوية بين الحياة والأدب وبينها وبين الدين والتصوف، فاهتدينا إلى أهمية السياق الحضاري الذي يشتمل على الفرد في وسط وزمن وثقافة معينة، إن التوغل من جلد اللغة إلى الحضارة ونبضها ككل هو المطلوب من دراسة النصوص. وإلا فهي اجتزاء يؤدي إلى رؤيا ونتائج مبتورة في غير نسق.

إعتمدنا على المنهج المقارن لا كطريقة تناول في الدراسة فحسب، بل كوسيلة لاكتشاف الحقائق والسمات المتصلة بموضوعنا ومعرفتها.

وتعاملنا مع التراث لم يكن دافعه القبول أوالرفض بقدر ما كان يحفزنا التوغل،وروح الكشف فالتراث حياة للاحياء وموت للموتى والقراءات الثانية ضرورية بقدر الولادات الثانية التي لا تهادن الموت.

فقد اكتشفنا ان المعراج نوع أدبي متميز لم ينتبه إليه الدارسون والنقاد ففسرنا نشأته وتطوره وثماره على مدى العصور.

ووجدنا أن هذا النوع الأدبي يتصل بأدب الملاحم،كما وجدنا فيه موازياً لملحمة «جلقامش» فالمعراج هو «جلقامش» الحضارة الإسلامية التي لم تكن وريثة للأديان التوحيدية فحسب، بل هي وريث ومكمل لتراث الشرق القديم، والتراث عندنا لا يحد بالدين فحسب، بل يرتبط أيضاً بالبيئة والأرض والجماعة البشرية التي تعيش فيها وعليها وبالحضارات التي تولدها.

وثقنا مشكلة الكوميديا والمعراج وقدمناها في مناقشة جديدة موسعة واكتشفنا من خلال تحليلنا المقارن مشابهات مع الأساطير الوثنية من يونانية وشرقية قديمة.

ونحن نباشر نصوص المعراج الكثيرة، لم نستطع أن نسبر أغوارها الغنية إلا بتجاوز الجلد إلى الجوهر في القلب، وتبين لنا مدى ارتباطها بالخبرات الإنسانية.

وهكذا وضعنا يدنا على مفاتيح الرمز والرؤيا والتأويل الصوفي والتقويم الروحي وارتباط الفولكلور القصصي. بذلك كله مما دعانا إلى تحقيق مخطوطة واضافتها إلى هذه الدراسة كما وضعنا يدنا على وجود جدل صوفي متميز (DI-ALECTIC) تجلى لنا في شطح البسطامي، وشهوده ووحدة الوجود عند ابن عربي.

إن سبر الرموز والتصوير الفني وكشف ما تحتويه من مواقف ومضامين حضارية، هو جوهر هذه الدراسة التي هي في التحليل الأخير قراءة جديدة للتراث الذي يبتدىء عندنا بسومر ولم ينته بعد.

ونحن نفهم الدين نتاجاً حضارياً لا خضوعاً للغيب جوهره تفاعل الإنسان مع الله مطلق القيم الخيرة والإنسان هو صورته الكريمة على الأرض قال الشاعر:

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!.

من هنا كان المعراج في أشكاله الفولكلورية كجلقامش أسطورة شعبية عن رحلة لاكتشاف أسرار الحياة واكتشاف مركز الإنسان منها وتجدده وخلوده.

مصادر ومراجع مهمة في التصوف

- عبد الكريم القشيري، (الرسالة القشيرية)، القاهرة دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦م.
- عبد الكريم القشيري، (لطائف الإشارات)، القاهرة دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨م.
- عبد الرزاق القاشاني، (شرح فصوص الحكم) لابن عربي، مصر، ١٣٢١هـ.
- محي الدين بن عربي، (ترجمان الأشواق)، بيروت، ١٩٦١م
- محي الدين بن عربي، ديوان، القاهرة بولاق، ١٩٧٥م
- عبد الغني النابلسي، «خمرة ألحان وزينة الألحان في شرح رسالة الشيخ ارسلان» مخطوطة أملكها بقلم داوود النداف نقلها من رسالة قديمة في دمشق «١٦٠ سنة عن تاريخ النسخ في ١٣٢٣ هـ»
- عبد الغني النابلسي، ديوان مخطوط أملكه، دمشق - ربما تعلم المؤلف -
- عبد المجيد الخاني، (الحقائق الوردية في اجلاء السادة النقشبندية) دمشق ١٣٠٦ هـ.

Abu Nasr Abdallah B. Ali Al — Sarraj Al — tusi. The Kitab lumà Fi L — Tasswuf Edited by Reynold A. Nicholson. London, 1963

Ali B. Uthman Al Hujwiri. The Kashf Al Mahjub. Ed. By R. A. Nicholson London 1911

A. J. Arberry. Classical Persian Literature. London, 1967.

Sufism. London, 1968.

Muslim Saints And Mystics. Episodes From The Tadhkirat alaulia (memorial of the Saints) Trans. by Arberry. Chicago 1966.

Reynold Nicholson. The Mystics of Islam London 1914

«A persian Forerunner Of Dante» Journal Royal Asiatic sociey Vol. 19, 1943. PP. 1 — 5

John P. Brown. The Dervishes. London, 1918.

Titus Burckhardt. An Introduction To sufi To sufi Doctrine. Trans by Abraham.

D. M. Matheson. Pakistan Ashraf Press. 1959

Tuomas Arnold The Legacy Of Islam. Oxford, 1932

Henry Corbin. Creative Imagination In the Sufism of Ibn Arabi. Trans from French by Relf Manbeim. Princeton University Press, 1969